روايات إسلامية

١٠

رمضان حبيبي

الدكتور نجيب الكيلاني

رقم الإيداع : ٢٤٩٢٨/ ٢٠٠٦

الإهداء

* إلى الرجال الأوفياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ..

* إلى المؤمنين الذين عبروا إلى شاطىء الكرامة والحرية ، مستهينين بالموت ، باذلين أرواحهم لله .

* إلى الشهداء الذين ذهبوا ، وعاشوا في ضمير أمتهم ..

* إلى الشعب الذى صبر وعانى طويلا ولم يفقد ثقته بالله فى يوم من الأيام ..

* وإلى القائد الذى أشعل « الشرارة » فى يوم « بدر » الجديدة ..

* إلى جيل العاشر من رمضان .. يهدى المختار « الإسلامى » هذه الصفحات ..

رمضان جيبي

١

لم تكن «جليلة» تعلم- على وجه الدقة- ما يعانيه أحمد عبد الفتاح من شوق عارم، وليس فى وسعها أن تتصور الرغبة الجامحة فى قلب ذلك الشاب الهادىء الوديع الخجول المتدين، كل ما تعرفه «جليلة» هو أن أحمد قد تخرج من كلية الآداب قسم الفلسفة منذ عام، وأنه لم يتسلم عملا حتى الآن فى أى ديوان من دواوين الحكومة، وأنه مجند.. نعم جندى مؤهلات.. وأنه جار لها ويرمقها من آن لآخر بنظرة مرحبة، وأنه يرغب فى الزواج منها.. وعلى الرغم من أن جليلة أخصائية اجتماعية فى إحدى المدارس الخاصة، إلا أن إدراكها الفاحص المتعمق لم يكن- حسبما يرى أحمد- قد نما نموا كافيا.. هذه المشاعر الفاترة فى نظرها ليست هى الحب، وهذا الأسلوب الموجز الشبيه بالبيانات الرسمية لا يشبع غرورها، ولا يرضى طموحها.

والعجيب أنها لم تصد أحمد أو ترفضه صراحة، كانت تقترب منه ثم تبتعد عنه، لعلها لم تأخذ الأمر كله مأخذ الجد، وماذا يضيرها أن تتلقى رغبات الخطاب، وهمسات الخاطبة، وأمنيات الأم؟ إنه نوع من التسلية البريئة، ثم إن رفضها القاطع ربما يكون فيه قسوة على ذلك الشاب الطيب البرىء الذى

لايعرف من دهاليز الحياة وأسرارها وألاعيبها إلا القليل جدا ..

فى أحد الأيام رأته «جليلة» قادما ، كان حليق الرأس على عادة العسكر ، ومع ذلك فإن وسامته بدت جلية لا يمكن أن تخطئها عينها ، شعرت بشىء من الحرج ، ووجدت نفسها تقارن بينه وبين «فتحى» صديق شقيقها .. إن لفتحى سوالف طويلة ،وشعر مرجل، ويدخن نوعا من السجائر الفاخرة مستوردة من الخارج .. خال من العقد والقيود والمخاوف .. وضحكت ، وطرحت رأسها إلى الخلف وهو جالس لا يتزحزح من المقعد الذى قدمته له فى غرفة الأخصائية الاجتماعية بالمدرسة الخاصة ..

وقال أحمد فى بساطة غريبة : «جئت طالبا يدك ..»

ابتسمت ، وحمدت الله على خلو الحجرة من أى مخلوق سواهما .

– « ألا تخاف من حضرة الناظر ؟ » .

– « أنا لا أخاف أحدا إلا الله » .

– «كان أفضل لو كلفت أمك بهذه المهمة » .

سدد إليها نظرات فاحصة ، بينما استطردت قائلة : « النسوة أكبر على مجابهة هذه المواقف » .

قال دون أن تطرف له عين : « والرجال أيضا ..» .

– «كيف ؟ » .

– « إننى أعبر قناة السويس وأعود .. الجانب الآخر من القناة فيه الموت فى كل شبر .. ولكنى أعود » .

طوت أوراقها أمامها وقالت : «معارك الطائرات والمدافع أخف من معارك الحب » .

تلعثم قائلا : « كلمات يُعْوِزُها الدليل » .

اعتدلت فى جلستها وقالت : «لنكن صرحاء .. كيف تفكر فى الزواج وأنت لن تترك الجيش قبل سنوات ؟ هناك من قضوا فيه أكثر من خمس أو ست سنوات ..» .

طأطأ رأسه وقال : «الحب لايعرف حدود الزمان والمكان » .

قالت وهى تقدم له طبقا به بعض قطع الحلوى الملفوفة : « هل جربته ؟ » .

– «نعم ...» .

– « من أحببت قبلى ؟ » .

قالتها فى دهشة وترقب ، فرد : « أحببت الله » .

انفرجت ضاحكة .. وعادت تقول : « هذا شىء آخر ..» .

– « أبدا .. الحب الكبير بناء متكامل .. يشمل الكون كله » .

– « أنت تخلط بين الحب والعبادة ..» .

همس : « الحب ؟ تُرى ما رأيك فيه ؟ » .

تنهدت قائلة : « الحب الذى أعرفه فيه شىء من المعصية » .

ارتجف جسده ، شعر بغير قليل من الضيق ، وتأرجحت عيناه فى محجريهما ، فكر أن يغادر المكان غير آسف ، لكن شيئا ما يشده إليها ، إنه لا ينكر أنه يحبها ، لماذا لا يفسح من صدره وعقله لحوارها ؟ إن لها منطقا ، كان الكفرة يضايقون الأنبياء ، ويرمونهم بكل نقيصة ، ويسفهون آراءهم ، والأنبياء يصبرون ويغفرون ويدعون لهم بالهداية .. أنا لست نبيا ، ولكنى أستطيع أن أصبر .. علمتنى التجربة الدينية والفلسفية أن أصبر ..

والتفت إلى جليلة قائلا : «لماذا لا نبدأ معا بنظرة جديدة ..» .

– «تريد أن تحيل الحب إلى تجربة علمية ..» .

– «حياتنا كلها تجارب .. والتجارب المستعارة يا جليلة أضعف أثرا من التجارب النابعة من الوجدان ..» .

قالت فى شىء من الملل : «نستطيع أن نؤجل الكلام فى هذا الموضوع» .

– «ولماذا نحرم أنفسنا من شىء طيب جميل ومفيد ؟» .

– «وقد تختلف وجهات النظر ..» .

تركها ومضى ، إن أمامه أقل من ساعتين كى يلحق بقطار السويس ، لابد أن يصل فى موعده ، عيون جليلة قوية آسرة مثيرة ، كلماتها– برغم تخبطها– تحرك فكره ومشاعره ، شعرها المتحرر المنطلق يتناثر فى خياله كأنها راكبة على

بساط الريح .. إن رؤيتها تحرك فيه أشواق الخيال، وتخمد لديه الحس الفلسفى، وهو صادق مع نفسه، لماذا ينجذب إلى هذه الفتاة بالذات ؟ آه .. هناك آلاف الأسئلة الحائرة التى تتصدرها كلمة «لماذا ؟» لكنها تبقى معلقة لسنين .. كان جدى رحمه الله لا يعرف القلق الذى أعانيه فى عصرى هذا .. كانت القلة تكركر فوق فمه ذى الأسنان البيضاء .. ويحمد الله .. ويتناول كسرات من الخبز مغموسة بالملح ويحمد الله .. وتنزل عليه النازلة أو تطرق بابه المصيبة فى أحد من أهل بيته، أو فى ماشية من مواشيه، أو فى حقل من حقوله .. فيحمد الله .. وقال لنا ألف مرة «دنيانا لا تساوى عند الله جناح بعوضة» وقلت له ذات مرة : ولماذا خلقنا الله إذن؟ ولماذا نحيا ؟ .. ابتسم وأشرق وجهه وقال : «هذه إرادته وحده .. نحن عبيده .. خلقنا لنعبده .. وعلى الرغم من أننا نعبده، إلا أنه وهب لنا السيادة على الكون وسائر المخلوقات .. كان هذا تكليفا منه .. وأصدر أمره :

﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ ..

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ .

ونظر أحمد من خلال نافذة القطار الذى ينهب الأرض قاصدا السويس، المزارع الخضراء تمتد لا يحدها بصر .. كالحب تماما .. والسماء الزرقاء لا يكاد الإنسان يدرك لها نهاية .. أيضا كالحب .. وزاغت نظراته فى العالم الأخضر من حوله ..

وعاد إلى الشاطىء الآخر بخياله حيث يكمن العدو .. إنه يعبر القناة ويعود كل مرة .. أثناء عبوره يشعر كأنه فى حلم .. إنه لا يكاد يشعر بتعب أو خوف .. أهى غيبوبة صوفية كتلك التى يتحدث عنها الواصلون والعاشقون لجلال الله ؟! إنه يدفع المجداف بسهولة بالغة ، ويسبح فى بعض الأحيان فى يسر ، والمخاطر المبثوثة من حوله ينساها تماما .. حاسته السادسة– كما يقولون– تحركه على خطوط آمنة ، وتجنبه الألغام والأشواك .. ولذا فهو يعجب من إخوانه الجنود كيف يطلقون عليه لقب « بطل » ، يقول لهم دائما فى خجل : « إننى لم آت عملا خارقا ، كلكم تستطيعون أن تفعلوا ذلك .. لا أشعر أن هناك نوعا من الصراع البدنى الهائل كما تتصورون .. » .

جليلة تعرف تماما أننى لا أكذب ، وأننى أريدها على سنة الله ورسوله ، أنا لا أزعم أننى خال من النقائص ولكنى مثل سائر البشر ، ماذا تريد جليلة من دنياها ؟ هل لها آمال أخرى ؟ الزواج لا يحرمها من آمالها .. ووثب إلى ذهنه خاطر شيطانى .. آه .. الشك ضرورة فلسفية .. كرهت الشك لكن الفيلسوف «كانت» ارتضاه لنفسه مذهبا .. والشك فى بعض الأحيان لا يخلو من فائدة ..

– « ماذا ؟ أيمكن أن تحب جليلة غيرى ؟ هذا ممكن !! ولماذا لم تخبرنى بذلك ؟ إننى أعشق الصراحة والصدق .. آه لعلها أبت أن تصدم مشاعرى ، وتبعث الألم فى فؤادى .. والقلوب كما كان جدى يقول بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء ..

وأنا لا أصنع قيدا لمشاعرها .. عشت حرا وأكره أن أستعبد غيرى .. جليلة حرة .. وأنا .. أنا أسلمت نفسى لمبدع الكون .. فى رحابك يا إلهى أجد السكون والدعة والأمن ..» .

وتبللت عيناه بالدموع ..

لكن القطار ينطلق بسرعة رهيبة ..

والريح تضرب وجهه المتحقن .. وسرعان ما تفعل الريح فعلها فتتبخر الدموع، وتسرى ذراتها الطاهرة فى الآفاق الشاسعة ..



٢

إن لجليلة نظرتها الخاصة للحياة، ودراستها الاجتماعية والنفسية إلى جانب عملها كأخصائية اجتماعية، قد جعلا منها فتاة مريضة بما يسمى «الانفتاح».. الانفتاح على الحياة والناس والأفكار، وتعتقد جليلة أنه من الضرورى أن تدرس كل شىء، وتتمعن فى أى حدث، وتدرس كل شخصية، وتحاول جاهدة أن تبحث عن الدافع وراء كل سلوك أو تصرف.. فهى فى نظر نفسها متفتحة متعمقة، ولا يهم بعد ذلك أن يرى الناس عكس ذلك، ولا قيمة لأن يكون انفتاحها ضربا من التحلل، أو أن يكون تعمقها غرورا أكثر منه حقيقة، إنها تستمتع بشخصيتها.. بانفتاحها وتعمقها للشخصيات والأحداث، ومع ذلك فقد كانت جليلة تشعر ببعض الضيق فى الأيام الأخيرة، لكنها تحاول أن تخفى هذا الضيق أو تنكره، وعلى الرغم منها كانت صورة أحمد تزحف إلى خيالها، وتفرض نفسها على عالمها.. أحمد برأسه الحليقة، وبصفحة وجهه الرائقة، ونظراته الحادة، وعواطفه المكتومة التى لا تعرف عنها شيئا يذكر، ولاحظت عليها أمها بعض التوتر فقالت لها: «إن حالك لا يعجبنى يا جليلة ..».

أدركت ما ترمى إليه أمها على الفور فقالت : « أنا مشغولة بمشاكل الناس » .

– « وأنت ؟ ألا تفكرين فى نفسك ؟ » .

ضحكت جليلة : « الأخصائيون الاجتماعيون وعلماء النفس هم أنبياء هذا الزمان » .

قالت أمها فى انزعاج : « استغفرى الله يا ابنتى » .

– « تلك حقيقة » .

– « أية حقيقة يا جليلة ؟ كلكم .. كلنا نتحدث عن العقد النفسية والأمراض النفسية .. والتحليل والإيحاء والصدمات الكهربائية .. لكنى لا أرى نبيا واحدا من أنبيائك المزيفين قد أحدث تغيرا أو شفى جرحا من جراح النفس ..» .

جمدت جليلة مكانها ، المصحات النفسية مليئة بالمرضى فى شتى أنحاء العالم ، ذلك الشاب ابن خالتها الذى يخاف الامتحان ، ويتحاشى الناس ، لم ينفعه شىء ، حالة الاكتئاب التى أصابت إحدى زميلاتها فى كلية الآداب منذ سنوات ، الوهم الذى سيطر على عمها فتصور أنه سيموت بداء القلب ، مئات الأمثلة ، ومئات المشاكل المعقدة التى درستها أو شهدتها بنفسها .. يا إلهى أيمكن أن يكون اقتناعها العلمى مجرد وهم .

غمغمت جليلة قائلة : « هناك مشاكل استعصى حلها حتى على الأنبياء أنفسهم ..» .

قالت الأم وقد تبللت عيناها بالدموع : «تكلمى عن كل شىء .. ودعى أمر الأنبياء» .

ردت جليلة وقد احتقن وجهها : «لم أعد أؤمن بالمعجزات .. العدو على الشاطىء الآخر .. ونحن أكثر من خمسة وثلاثين مليونا .. ولدينا التاريخ العظيم .. والأنبياء .. والكتب السماوية .. لكن شيئا من ذلك لم يمح الهزيمة حتى الآن ..» .

سددت إليها أمها نظرات آسفة ، الشال الأبيض يحيط بوجهها المستدير الممتلىء الشاحب ، وشعرات بيضاء تتراءى على الجانبين ، وندى الدموع يبلل الأهداب ، وشفاه تتمتم فى وقار : « آمنت بك يا رب ..» .

وهرعت جليلة إلى الخارج ، كان «فتحى» صديقها وصديق أخيها فى انتظارها ، «كازينو الشجرة» مكان هادىء جميل على شاطىء النيل ، صفحة الماء تمتد إلى مسافة كبية .. وعلى صدرها التجعدات والتنهدات والنسمات والذكريات .. كان فى انتظارها .. تناول يدها وصافحها فى حرارة .. ثم قبل ظاهر يدها .. ابتسمت .. لكم يحلو لها أن ترى رجلا يخفض رأسه من أجلها ، ويلثم يدها كالعابد الخاشع .. لشد ما تكره الرءوس الحليقة .. إن شعر فتحى الطويل المرجل الأسود يريحها .. إنه يهتز مع الهواء .. لشد ما تتضايق من السكون والتزمت والتقاليد .. كانت دائما تحلم بمجتمع جديد له تقاليد وآداب جديدة من صنع أفكارها ، وعلى هوى خيالها .

– « ماذا تشربين ؟ » .

– « كوبا من عصير المانجو ..» .

– « البيرة ألذ ..» .

– « أريد مانجو ..» .

أخذ يثرثر وهو يكرع كأس البيرة ، ويتناول « المزة » وهي ترشف عصير المانجو ، تحدث عن اختفاء عدد من السلع من الأسواق ، وأعطى أهمية كبرى لارتفاع سعر الويسكي ، وعن الفيلم الهندي الأخير وتذاكره التي تباع في السوق السوداء ، وعن سعر الاسترليني والدولار في عالم التهريب ، وعن صداقته لمليونير عربي يقضي معظم العام في مصر وينفق عن بذخ ، وعن أزمة العثور على تاكسي في القاهرة ، وألمح بكلمات عن الفتنة الطائفية التي سادت فترة ثم اختفت .. ثم تحدث عن الحب فقال : « أنا لا أبحث عن امرأة عاشقة ، ولكني أريد عقلا يفهمني وأفهمه ..» .

– « منتهى العقل ..» .

– « إن رأيي كذلك دائما ، أما رعشات المراهقين فلست من أنصارها ..» .

قالت جليلة في شرود : «الزواج عقد اجتماعي بين طرفين ..» .

ضحك فتحي وقاطعها قائلا : « أموت في علم الاجتماع ..» .

ثم أفاقت جليلة من شرودها قائلة : «لكنني أحيانا أشعر

أننى طفلة .. وأحيانا أخرى أبدو وكأننى فتاة مراهقة .. وفى بعض الأوقات أتحول إلى جليلة العاقلة الرزينة .. الأخصائية الاجتماعية .» .

لم تكمل كوب عصير المانجو ، القلق يساورها ، وهذا شىء لم تألفه على هذه الصورة المزعجة ، قال فتحى : «نريد أن نرقص حتى الصباح ..» .

نظرت إليه دون اكتراث ، كانت يده تلتف حول خصرها فى المرات السابقة ، وكان الجسدان يحتكان ويلتصقان ، شعرت بحرج فى البداية ، لكنها ركلت ذلك الحرج بقدمها ، لماذا تحرم نفسها من شىء ترى فيه بعض المتعة واللذة .. وذلك اللئيم المتخنفس اختطف منها ذات مساء قبلة عابرة .. وكادت تصفعه على وجهه ، لكنها قالت لنفسها كيف أبيح له مراقصتى ثم أعاقبه على قبلة عابرة ؟ وتحسست مكان القبلة على خدها فلم تجد تغيرا ملموسا .. ثم ماذا بعد الرقص والقبلة ؟

– «اسمع يا فتحى .. الذى يتنازل عن شبر من أرضه يظل يتنازل .. لا حد لتنازله وتراجعه ..» .

قال فى ضيق :

– «أعوذ بالله .. أنا أكره الحديث عن السياسة والحرب .. وأزمة الشرق الأوسط ..» .

– «أنا لا أتكلم فى السياسة .. بل فى مجال تخصصى» .

– «لا أفهم» .

- « ماذا بعد أن قبلتنى على خدى ؟ » .
- « أقبلك مرة أخرى ..» .
- « ثم ماذا ؟ » .
- « ثم على شفتيك ..» .
- « ثم ..» .
- « ثم نظل ننعم بالحياة ..» .
- « ومتى نتزوج ؟ » .

قال فتحى : « الزواج يا آنستى سجن اجتماعى » .

- « بل ضرورة اجتماعية ونفسية ..» .

وقهقه ساخرا : « ونصف الدين ..» .

قالت بجد : « نعم ضرورة دينية ..» .

وعاد إلى سخريته مازحا : « حسنا .. سنتزوج بعد إزالة آثار العدوان » .

قالت فى مرارة : « هذا مرهون بمشيئة إرادتنا كشعب وجيش ..» .

وعاد يسخر : « بل بمشيئة روسيا وأمريكا .. لماذا ؟ دعينى أضع النقط فوق الحروف .. هذا رهن بمشيئة « أحمد » ..» .

وضحك حتى كاد يستلقى على قفاه ، فكرت أن تدفع الكرسى الجالس عليه بقدمها فيهوى ، لكنه اعتدل ، وقال : « أحمد هذا تحفة .. إنه صوت من الماضى .. هل ما زال يطاردك ..» .

قالت باكتئاب : « القلب الوحيد الذى لم يتبدل ..» .

– « إنه مشغول بإزالة آثار العدوان ..» .

أشعل سيجارا كبيرا ثمينا وقال : «لقد هبط علينا ذات مساء .. أخذ يحدثنا عن الرجال الصامدين .. عن تجارب العبور والتسلل إلى الضفة الشرقية .. وعن إمكانية النصر .. الحقيقة إننى كدت أتقيأ ..» .

قالت جليلة : «لماذا ؟» .

– «لقد شفيت من داء الوطنية من زمن قديم ..» .

– «منذ متى ؟» .

– «منذ أن صفعنى المخبر على قفاى .. وبعدها بصق أحد الزملاء فى وجهى وقال لا حرية لأعداء الشعب .. وبعدها وقفت فى الطابور الطويل ولم أحصل على دجاجة ..» .

صرخت جليلة فى حدة : « أنت تافه ..» .

ابتسم ابتسامة صفراء وقال بهدوء غريب : «لماذا ؟» .

– «تتنكر لوطنك من أجل صفعة .. أو دجاجة .. أو كلمة ..» .

زوى بين حاجبيه وقال : « إننى أعيش لنفسى ..» .

وسادت فترة صمت وقال بعدها : « عندئذ .. أصبح المخبر يؤدى لى التحية وكأنى ضابط .. ومدير الجمعية يرسل لى ما أشاء .. وصديقى يحنى رأسه فى ذل ويطلب قرضا لآخر الشهر .. على الرغم من أننى رجل بسيط أشتغل فى شركة سياحية ..» .

وعاد يقول : « أنا لست تافها .. عبد السلام أخوك هو الآخر يبحث عن وسيلة يهرب بها من التجنيد ..» .

صاحت فى حدة : «كذب ..» .

– «وفكرنا أن نصنع له عاهة أن نبتر له أصبعين من يده اليسرى ..» .

هبت واقفة ..

وغادرت كازينو الشجرة دون أن تستجيب لندائه .. لم يستطع فتحى أن يفسر سلوكها الجديد .. ومضت فى طريقها .. المدينة ذات الوجهين .. ليل ونهار .. صدق وكذب .. خير وشر .. أحمد وفتحى .. وأنا المنحوسة جليلة أعيش فى منطقة شبه الظل ، أتأرجح بين النظريات والأفكار التى أقرؤها عن الآخرين ، وأتذبذب بين أذرع الراقصين ، وقبلات الخاطفين ، وبين تزمت أحمد وانطلاق فتحى ، وإيمان أمى ، وعصيان صديقتى .. أحل مشاكل الناس وأنا نفسى مشكلة عويصة أعقد من مشكلة الشرق الأوسط .. بل يخيل إلى أن مشكلتى لو حلت لكان هذا بداية لحل المأساة الكبرى التى تخيم على وطننا الكبير .. وأنت يا أحمد أليس عنك مشكلة ؟

يؤسفنى أن أقول لك أنك لا يمكن أن تصلح لى زوجا برغم أدبك وتزمتك وصدقك .. فأنا مخلوق غيرك وأريد لنفسى شيئا آخر .. هذا ما أشعر به وأؤمن به إيمانا لا يتزعزع ...



٣

فى كل مرة يدعى فيها بعض الجنود للتطوع فى عملية فدائية، يتقدم «أحمد» الصف، ويهب نفسه للموت، أصبح هذا الأمر مثيرا للضحك البرىء، وأحمد دائما يتقدم للمخاطر وكأنه يتقدم لأخذ وجبته الغذائية، أو ذخيرته أو لتسلم بعض احتياجاته، وعندما يداعبه إخوانه، كان يقول فى بساطة غريبة : «أنا لست شجاعا، ولا أتكبد أية معاناة فى فعل ذلك، قد تتساءلون ألست بشرا يا أحمد؟ فأرد عليكم بقولى .. أنا بشر .. وأحب وأكره .. وأخاف أحيانا .. وأحيانا أخرى لا أرهب شيئا .. لكن بالنسبة للمخاطر فهى تستثيرنى .. تشدنى إليها ..

الموت مكتوب، ليس منه هروب، والحياة مهما طالت قصيرة .. كلنا ميتون .. وثقتى لا تتزعزع بأن الموت جسر عبور بين الدنيا والآخرة .. وإذا كانت أجمل وأروع فلماذا نتهيب الانطلاق إليها بأقصى سرعة .. مات أخى «سلامة» فى حزيران الحزين عام ١٩٦٧ .. مات وهو يعشق الحياة لدرجة الهوس .. كان يرتعد إذا أصابته أنفلونزا .. ولم يكن يستطيع أن يفارق زوجته وولده الوحيد ليلة واحدة .. وكان يرفض أن يستمع إلى من يروى له حادثة من حوادث السيارات، ويأبى أن يصيخ سمعه لكلمات القبر .. والمرض .. والوفاة .. ولا ينظر مطلقا فى صفحة النعى بالصحف

اليومية .. ويفر من فراشه إذا توعك، ويجرى هنا وهناك مخافة أن يتحول فراشه إلى كفن .. ومع ذلك مات فى المعركة .. فى صحراء سينا الشاسعة حيث الرمال تمتد إلى ما لا نهاية، وحيث الشمس الحارقة والظمأ والوحدة والعذاب .. أيها الضائعون فى هذه الصحراء المقفرة .. اصرخوا واصرخوا .. فلن ينجدكم أحد .. أنتم والموت وجها لوجه .. مات سلامة .. لم نعرف كيف مات .. لم نتسلم جثته .. قالوا مفقود .. ثم قالوا مات .. المضحك أن أمى حتى الآن ما زالت تنتظر عودته .. وزوجته زوجة سلامة تركت الطفل لنا وتزوجت بعد المدة القانونية .. لم أر حبا من قبل كحبها لسلامة .. لكن يبدو أن وهج الحب انطفأ مع غروب شمس أخى الشهيد .. فى الحقيقة لم نستطع أن نخبر أبى بما جرى .. لقد كان أبى فى أحد المعتقلات السياسية آنذاك .. وكنا ممنوعين من الاتصال به .. يا إلهى .. كانت الجراح كثيرة .. وكنت أنا أذاكر .. وأعمل .. وأعول أسرة .. وأعانى من أحلام اليقظة صباحا ومساء .. ويحترق قلبى بالأسى والظلم ..»

لكأنما الأرض قد زرعت بشرا على الجهة الغربية لقناة السويس عشرات الألوف من الجنود يتحركون بدقة وحساب، الخنادق والدشم والأسلاك الشائكة والحواجز المصنوعة من أجولة الرمل، والمطارات السرية وقواعد الصواريخ والدبابات الرابضة فى شتى المواقع والعربات المتنوعة .. مشهد لم ير له أحمد مثيلا فى خياله قبل التحاقه بالجيش .. أصبح أحمد قادرا على أن ينام وسط

الضجيج والغبار وفوق الأشواك وتحت أشعة الشمس أو فى عتمة الليل ، وهو يشعر بلذة ما بعدها لذة ، ويؤمن إيمانا لا يتزعزع أنه يجاهد فى سبيل الله ، أنه يدافع عن العرض والعقيدة والحرية والمال والولد والوطن ؟

قال له أحد الجنود :

- «يا فيلسوفنا العظيم أحمد .. لماذا هزمنا فى ٦٧ وكيف ننتصر اليوم ؟ » .

ابتسم أحمد فى تواضع ، وهمس :

- « من أنا حتى أجيب ؟ » .

- « لأنه مصيرنا » .

هز أحمد رأسه وتمتم : « السؤال معقد التركيب ، ولن يكون الجواب سهلا .. ومع ذلك فيمكننى أن أجيب على الشق الثانى .. نعم .. ننتصر اليوم بطاعتنا لله ..» .

قال الجندى لأحمد :

- « والتكنولوجيا الحديثة .. والعلم .. والتدريب .. ما دور ذلك كله ؟ » .

تطلع أحمد إلى الشاطىء الشرقى وخط بارليف الحصين وقلاع العدو الضخمة وأجاب : «كل هذه الأشياء تدخل أو تندرج فى طاعة الله ..» .

- « لا أفهمك يا أحمد » .

أمسك أحمد بيد رفيقه : « الذين يتعلمون العلم يعبدون الله ..

والذين يبنون الحصون ويقودون الطائرات، ويطلقون الصواريخ أو يتدربون عليها .. هم أيضا يعبدون الله .. ماذا أقول ؟ أريد أن أقول لابد أن يكون الله من وراء القصد ..» .

وقف أحمد وعاد ينظر إلى سيناء المحتلة ويقول : «وما النصر إلا من عند الله ..» .

وتذكر أحمد أخاه «سلامة» .. كان سلامة حزينا مكتئبا يوم أن قرروا سحبه إلى الجيش، رحمه الله قالها ببساطة ودون مراوغة «يا أحمد أنا أفكر فى نفسى وأولادى» .. لكن أمن الوطن من أمن المواطن يا سلامة .. ولن تسعد بالحياة يا سلامة فى وطن احتل جزء منه .. لماذا لا تجيب يا سلامة ؟ تكلم .. أنت حزين من أجل أبيك السجين المظلوم .. أعرف ذلك .. وحزين من أجل مراكز القوى الظالمة التى طاردتنا وشوهت سمعتنا .. وأزعجت ليلنا ونهارنا .. لكن الوطن باق يا سلامة وهم ذاهبون .. وأبوك أوصانا بأن نكون مخلصين لأمتنا، ولا نفقد قيمنا العالية من أجل ظلم حاق بنا .. وذهب سلامة حزينا .. لم يكن مقتنعا بأن يموت ...

وعاد الجندى يقول : «لماذا لا تجيب ؟ إننى أسألك .. العدو الماكر وحلفاؤه يمدونه بكل شىء .. والعالم قد خدعته الأكاذيب الصهيونية .. والكبار فى العالم يحدون من نشاطنا وحركتنا .. نحن كالسجناء ..» .

- «نستطيع أن ننتصر ..» .

– « أنت خيالى بعض الشىء ..» .

– « بل أحلم كل يوم بالنصر .. إننى أنتصر فى كل عبور أقوم به .. رأيت العدو بنفسى يفر .. كان يهرب أو يجثو أمامى طالبا الرحمة .. هؤلاء الصبية على الشاطىء الآخر يعيشون فى حماية التكنولوجيا الحديثة وحدها .. لكنها لا تكفى .. الإنسان هو الذى ينتصر .. نعم استوليت على التكنولوجيا منه .. رفع يديه .. قبل الأرض لدى قدمى .. وقال لى بلغة عربية سليمة « أنا فى عرضك يا مصرى » .. الخطأ والصواب جائز فى الحروب .. أتذكر معركة « أحد » حين خالف الرماة أوامر الرسول ؟ ماذا جرى ؟ مجرد ثرثرة على الشاطىء الغربى للقناة .. أذل الحرص أعناق الرجال .. كان الله فى عونك يا أبى السجين .. إن أيام الحسم لابد أن تجىء .. جليلة لا تريد أن تحسم مسألة الزواج منى .. قسما لو تزوجتك يا جليلة لأعلمنك كيف تكون الحشمة ، وكيف تكون الأخلاق التى دعتنا إليها الشريعة .. إننى أتثاءب .. أشعر بالنوم يزحف فى كل مكان .. النسيم عليل .. والماء يتألق بانعكاسات فضية .. والسماء صافية .. كبشرة جليلة .. والليل يذكرنى بالحياة .. بالقضبان والقيود .. وبالرغبة فى الانطلاق إلى الخلود .. إلى اللا محدود ..» .



٤

كان أحمد يعلم أن أمه مريضة بضغط الدم العصبى، وأسبابه كانت واضحه لديه جلية، أن أباه كان يعتقل من آن لآخر منذ عام ١٩٤٦، ويساق مهينا إلى السجن، وكانت أمه تحمل عبء الصغار، وتكافح من أجلهم، وتبكى تحت جنح الليل بكاء مرا .« ودموع المساء لا نهاية لها .. إنها حبل طويل .. من قطرات .. يمتد بين السماء والأرض يا أماه ..» وكانت أمه تحزن من أجل ضيق العيش وقصر ذات اليد حتى فى الأيام التى يكون أبوه فيها موجودا يمارس عمله كتاجر قماش من تجار الموسكى الصغار .. رأس ماله ضاع وتبدد أكثر من مرة .. لعنة الله على السجن وما يجره من نكبات .. وأمه حزينة حزنا بعيد الغور على موت سلامة .. فكرت مرة أن تقذف بنفسها على صفحة الماء فى القناة، وتهرول إلى عربان سينا باحثة عن ولدها المفقود، وتناجى الكثبان والوديان والدروب سائلة عن فلذة كبدها .. كانت تظن أن رحلتها هذه سوف تكلل بالنجاح، لكن الأقرباء والمعارف كانوا يواسونها وينصحونها بالصبر والتسليم فى زمن العجز المحزن.. وفى المرة الأخيرة التى رأى أحمد فيها أمه وجدها كأبيه شاحبة مؤمنة، لكن الدموع تترقرق فى عينيها :

- « لماذا يا أمى ؟ » .

- « أخوك لم يعد .. وأبوك لم يعد ..» .

- « تعلمين أن أبى برىء ..» .

- « وما قيمة ذلك ؟ » .

- « هو عائد بمشيئة الله ..» .

- « وأخوك حى .. ألا تظن ذلك ؟ » .

طأطأ أحمد رأسه وقال :

- « نحن نعيش على الأمل » .

طرحت رأسها إلى الخلف .. ناداها فلم تجب ، استدعى لها طبيب الحى ، عجب الطبيب كيف تعيش امرأة بهذا الضغط الدموى المرتفع .. ووصف لها الدواء العاجل ، وأوصى بمراجعته أسبوعيا على الأقل ، وأفهم أحمد أن إهمال العلاج معناه أشياء خطيرة أبى أن يذكرها صراحة ..

قال رفيق من الرفقاء بعد أن أدى صلاة العصر ، وكان يحمل رتبة « رقيب » :

- « أتظن أن هناك حربا ستشب يا أحمد ..» .

- « كل ما أعرفه أننى مستعد للتضحية ..» .

تنهد الرقيب فى حيرة وقال :

- « نحن نتدرب ليل نهار ، ونستوعب السلاح الجديد ، ونحلم

بالمعركة .. لكن كثيرا من الجنود يقولون لا حرب الآن .. وبعض القادة يهمسون بذلك .. ورجل الشارع سمعته يشك فى قيام حرب تحريرية قريبة .. والصحافة العالمية تؤكد ذلك .. والعدو يتبجح .. ويبنى المستعمرات الجديدة فى سينا والجولان .. ويتحدى أن تقوم حرب .. الحقيقة يا أحمد أننى أحيانا أكاد أصاب باليأس .. أن جيلنا يجب أن يحرر وطنه العربى الكبير كله .. لماذا نسلم الأمانة للأجيال القادمة مثقلة بالديون والمشاكل والعقد ..» .

كان أحمد يستمع إليه فى اهتمام على الرغم من انشغاله بحالة أمه الصحية ، وكان يؤمن أن ما يقال حول المعركة ليس سرا ، وهناك خلط كبير ، وتحيات أكبر ، وغموض لا يخفى على أحد ، وحسابات متباينة فى السياسة الدولية والمحلية .

قال أحمد :

– «نحن نعرف أن المعركة ستقوم ..» .

قال الرقيب « عرفان » :

– «كيف ؟» .

– « أنا واثق أن قرار الحرب سنتخذه نحن العرب .. ومن ثم فإن الحرب آتية فى وقتها المناسب ، لأنه لا يعقل أن نترك أرضنا للعدو .. لم يفعل ذلك أحد فى تاريخنا كله .. ولأنه ليس هناك وسيلة سوى الحرب ..» .

قال الرقيب عرفان : « عدونا ماكر قوى » .

– «نحن أقوى بحقنا .. والله ومعنا» .

– «وسلاحنا قد لا يكفى ..» .

– «بل يكفى .. كل الدول التى سيطر عليها الاستعمار قاومت وحاربت .. وانتصرت على الرغم من أنها أضعف من عدوها .. كنا أضعف من الإنجليز .. وكانت الجزائر أضعف من فرنسا .. لكننا تحررنا» .

واقترب منه أحمد وقال : «أتعلم أنا نقبض على عنق العالم ؟» .

– «كيف ؟» .

– «لو قطعنا بترولنا لقتل البرد أوروبا وأمريكا ، ولأغلق المصانع .. ولو رفضت أسواقنا تجارتهم لأفلسوا ..» .

قال عرفان فى مرارة : «حاولنا ذلك بالأمس فلم ننجح ..» .

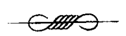
– «لأنه هناك رواسب لابد من إزالتها أولا ..» .

– «سنعيش دائما على الأمل.. على أية حال كلامك مريح ..» .

تسلم أحمد خطابا من القاهرة ، فض الغلاف وجرت عيناه على السطور ، إنه لا يدرى هل هو فى حلم أم فى يقظة «أبوك خرج من المعتقل وأصبح حرا ، وأمك سقطت عند لقائه مصابة بالفالج .. نصفها لايتحرك .. ولسانها تخرج منه الكلمات متعثرة ..»

ونام أحمد على الرمال حتى الصباح ، السلاح فى يده ،

وعيناه ترقبان النجوم، وقلبه يدق،، أحمد يجرى ويجرى ويجرى بخياله .. يقطع المسافة بين القناة وبيته مئات المرات، ويدق الباب .. ويحتضن أمه ويبكى .. ويعانق أباه ويبكى .. لكنه ما زال يرمق السماء .. وقلبه يدق ..



٥

واحتضن أحمد أباه، ضمه إلى قلبه الظامى، وبكا الرجلان، وشهقت الأم المشلولة جوارهما، وتمتم الأب: «علمت أن سلامة مات .. ما معنى أن تخفوا عنى الخبر، لقد اختاره الله .. أنتم لا تعلمون .. كان سلامة يخاف الموت، لكن رفاقه أخبروا عنه أحداثا غريبة لا يصدقها عقل .. كان فى إمكانه أن ينسحب لكنه حارب .. ميدان المعركة أنساه الخوف .. بل أنساه الحياة بما فيها من مغريات .. ومات بطلا ..».

كانت الأم قد تحسنت قليلا بالعلاج الطبى، وكان الأب يشعر ببعض الارتياح وهو فى بيته، وكان ينظر إلى أركان البيت فى شوق ومحبة، وعاد يقول: «لقد اقتضى الأمر وقتا طويلا كى يتأكدوا أننى لا أشكل أدنى خطورة على الدولة .. وكيف يمكن أن أكون مصدر خطر وأنا الذى عشت حياتى محاربا فى فلسطين ضد اليهود، ومناضلا فى القنال ضد الانجليز ؟ يبدو أن هذه المؤهلات كانت مصدر شقائى ولكنى رجل أحب دينى ووطنى وأضحى بحياتى فى سبيل الله .. السجن تجربة مريرة .. لكنها مثيرة ..».

طالما صرخت فيهم:

– «أنا لست عضوا فى حزب ..».

وصمت الأب برهة وقال :

- « لماذا لا تحاربون يا أحمد ؟ » .

- « الحرب لم تتوقف ..» .

- «لكن المعركة الكبرى لم تبدأ ..» .

- «نعم .. لكن الرئيس- رعاه الله- أصدر قرارًا بترحيل الخبراء السوفييت إلى بلادهم ..» .

هز الأب رأسه قائلا : « هذا حدث هائل ..» .

- « أجل » .

- « وهذا الحدث سوف يترك بصماته على تاريخنا لفترة طويلة .. وصداه ما زال يرن فى كل مكان ..» .

وتمتم أحمد : «شعرت يومها أننا نستطيع أن نفعل ما نريد » .

- «نعم يا ولدى .. يبدو أن اتخاذ قرار الحرب أصبح فى يدنا نحن .. وأننا أصبحنا قادرين على الاعتماد على أنفسنا ..» .

وصمت الأب برهة ثم قال : «لكن الروس لا يعطوننا إلا بالثمن .. ولا يعطوننا كل ما نريد .. هذا ما يقوله رجل الشارع » .

رد أحمد قائلا : «إننا ندفع الثمن غاليا من أقواتنا وأعصابنا ..» .

- « تلك فلسفة عالم اليوم .. عالم المصالح ..» .

وصمت الأب برهة وقال : « هناك إحساس عام بالركود والملل .. وبعض الناس يتصورون أنه لن تكون هناك حرب ..» .

– « حجم الهزيمة السابقة كان كبيرا ..» .

– « نعم .. والعدو يروج لتحصيناته وقوته الخيالية ، ويملأ الدنيا ضجيجا ..» .

– « يا أبى .. إن ذيول المنهزمين والهاربين من مراكز القوى– أولئك الذين اعتقلوك مرارا– هؤلاء ينفثون سمومهم ، وينشرون الأكاذيب ويشعلون الفتن والخلافات الطائفية ، ويستغلون حركات الطلبة فى المدارس والجامعات .. نحن نحارب يا أبى فى جبهات عدة .. وأخطر أعدائنا الانهزاميون ..» .

قال الأب : «كان يمكن أن يكون اضطهادى سببا قويا لكى أعتزل الناس والحياة وأكفر بالوطنية .. لكنى عشت فى سجنى أتابع الأحداث وأبكى من أجل أمتنا العظيمة .. وقدمت أكثر من التماس أطالب فيه بالسماح لى بالاشتراك فى المعركة فى أى مجال ..» .

تحسنت الأم ، واستطاعت أن تستعيد قدرتها على النطق رويدا رويدا ، فكانت تتكلم ببطء كلمات غير واضحة تماما ، ولهذا سعلت ولوحت بيدها السليمة وقال : « ألا تكفون عن الحديث عن الحرب والسياسة ..» .

قال الأب عبد الفتاح باسما :

- « عما نتكلم إذن » .

- «ليكن حديثكم عن أزمة المواصلات أو المساكن أو التموين » .

قهقه الأب قائلا : « هذا قمة السياسة ..» .

زمت شفتيها ثم قالت : «لم يبق من العمر إلا أقله ، ونريد أن نعيش هادئين .. إذن تحدثوا عن الكرة يا عبد الفتاح ..» .

مال عليها قائلا : «تعلمت الكثير عن لعبة الكرة فى المعتقلات » .

- « أكنتم تلعبون الكرة هناك ؟ » .

- « فى بعض الأوقات ..» .

- «تصورت أنهم لم يكونوا يكفون عن ضربكم بالسياط ..» .

اتسعت ابتسامة عبد الفتاح وقال : « الاثنان معا .. السياط والكرة ..» .

- « عجيب !! ماذا كنت تفعل عندما يضربونك » .

قال عبد الفتاح وهو يبتسم :

- «كنت أتحول إلى طفل » .

- « طفل ؟ » .

- «الطفل إذا ضربناه قد يصرخ أو يسب أو يجرى أو يضربنا ..» .

– «لا أفهم ..».

– «حسنا .. كنت أعجب كيف يضرب الإنسان أخاه ظلما بالسياط ليرغمه على رأى مخالف .. أنا ما تزعزع إيمانى بالله قط .. لقد كرهت فلسفات البشر وأحببت كلمات الله .. الفلسفة فى العادة جهد ذاتى بشرى يختلف من شخص لآخر .. لكن الدين .. أو الكتب المنزلة من عند الله .. من صنع الله وحده .. وهنا لا احتمال للخطأ أما الفلسفات فهى تضج بالأخطاء والصراعات والتناقضات .. لهذا آمنت بالله، ودعوت الناس إليه ..».

وذهب أحمد إلى غرفته، كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، صورة أبيه بالشعرات البيض فى لحيته ورأسه لها تأثير خاص، «لقد ضربوك يا أبى .. كان قلبى ينبض بالتعاسة والغيظ .. فكرت ذات يوم أن أقتحم أسوار السجن .. وأدمر الأسلاك والحراس والكلاب البوليسية، ثم أحررك من الأسر، وننطلق بأنفسنا إلى عالم مهجور فى قلب جزيرة منعزلة ننعم بالسلام والحرية والحب .. لكنها كانت أحلام يقظة، أعود من تجوالى فيها بمزيد من الألم والمرارة .. فأنا كنت مثلك يا أبى عاجز مقهور لا أستطيع أن أحرر عصفورا من القفص .. كنت أبحث على أرصفة الشوارع عنك .. وأتفحص الوجوه .. لكن الحقيقة تصفعنى فأذكر أنك خلف الأسوار العتيقة القاسية التى لا يمكن اجتيازها .. تحول شبابى بسببك يا أبى إلى ملحمة حزينة .. وثار حبى إيقاعا دامعا .. وبدت أمنيات الشباب الغض أوهاما وأحلاما يشوبها الأسى والغموض .. أيمكن أن يتصور إنسان

أن كلمة حق .. أو رأى حر يستطيع أن يسبب ذلك العناء كله لأسرة بكاملها ؟ ومضينا فى الطريق يا أبى تنزف جراحنا عذابا .. هزيمة فى الداخل .. وهزيمة فى الخارج .. وهزيمة فى الذات .. ماذا بقى ؟ ولهذا كاد اليأس يقضى علينا ، لكن شعاعا من النور انبثق فجأة .. فرأيتك على هداه تخرج من غياهب العذاب .. ورأيت رجالا يحملون السلاح ويعبرون الأشواك .. وسمعت كلمات حرة تشق عنان السماء .. وتتصدر الصفحات .. أن شيئا جديدا يولد فى بلدنا يا أبى .. وأرى قلبى يخفق بغير قليل من الفرح .. وأمى سوف تشفى من مرضها .. من يدرى ؟ قد نخوض معركة النصر التى طال انتظارنا لها .. وقد ترضى جليلة وتتزوجنى .. فأنا أحبها ..» .



٦

هل الإنسان مخير أم مسير؟ هذا السؤال حير الفلاسفة وعلماء الدين عصورا متعاقبة، ولم يزل الجواب حائرا بين وجهات النظر المتباينة، لكن «جليلة» ابتدأت تشعر أخيرا أنها كانت أسيرة عدد من النظريات، إنها تعيش كثيرا في الكتب، وللكلمة المطبوعة سلطان وسحر، فهي بالنسبة لما في الكتب تكاد تكون «مسيرة» لا مخيرة.. إن الحوادث تجعلها تعيد النظر في كثير من النظريات.. لقد بدأت في الانطلاق من إسار النظريات.. تريد أن تحيا وتفكر وتتصرف من خلال تجاربها الذاتية، ووثبت إلى ذهنها فكرة. لماذا لا تذهب مع أخيها عبد السلام لزيارة عبد الفتاح والد أحمد لكي تهنئه بسلامة العودة؟ إن هذه الأسرة الطيبة جديرة بالمجاملة، وهي لم تعرف عنها إلا كل صدق ووفاء واستقامة، وأحمد هو الآخر شاب طيب يعرف الواجب ولا تكاد تفوته مناسبة من المناسبات إلا وقام بما يجب عليه إزاءها، وعندما وصلت جليلة وشقيقها إلى هناك استقبلها أحمد وأبوه أطيب استقبال، كما بدت في عيني الأم المريضة نظرة امتنان وتقدير، وقالت جليلة: «حَمدا لله على سلامتك.. لقد أسفنا لطول غيابك..».

قال الرجل ذو السوالف البيضاء: «لم نغب أبدا.. كنا معكم

نشارك فى الأحداث ، ونعيش المعركة .. السجين السياسى ليس مجرد جسد . إنه فكر .. ورأى .. عزله وهم ، والقضاء عليه مستحيل .. الأحرار يستمدون بقاءهم من روح الله .. وأنا لم أغدر أو أخن .. أحببت كل الناس .. الطيبين منهم والأشرار .. السنوات التى عشتها خلف القضبان لم تذهب هباء يا آنسة .. لقد نجانا الله .. وأغلقنا باب المعتقل وراءنا .. بلادنا اليوم بلا وباء .. ظلم الأحرار وباء قاتل .. هزيمة الأمس كانت بسبب ذلك الوباء ..» .

وأخذوا يتحاورون عن الماضى ، وضربة العدو الغادر ، وحرب الاستنزاف ، وأجهزة التشويش ، والمعونة الأمريكية للعدو ، وعدم استعدادنا يوم النكسة لحرب حقيقية ، والخدعة التى أوقعتنا فى شراكها الدول الكبرى .. ونظرية التفوق البشرى والتفوق التكنولوجى ، وهل هناك تفوق حضارى يميز العدو ، إلى غير تلك الموضوعات التى طال الجدال حولها لسنوات ، وقال عبد السلام شقيق جليلة : «كان حجم الهزيمة كبيرا حتى أفقدنا صوابنا .. عشرات الآلاف العائدون من سيناء يوم التراجع الكبير كانت نفوسهم تتنزى حسرة ومرارة ..» .

وتدخلت جليلة قائلة : «وهناك مأساة التهجير .. إن الذين تركوا ديارهم فى منطقة القنال يشكلون صعوبة اجتماعية واقتصادية ثقيلة الوطأة .. عشرات الآلاف من الكوارث نبتت من هذه المشكلة أيضا ..» .

وورد أحمد قائلا : «والهزيمة تركت ظلالا سوداء على أدب الأدباء، وفكر المفكرين، وفن الفنانين .. إننى واثق أنه لا نجاة إلا بالعودة إلى الله ..» .

وسادت فترة صمت، عاد الأب عبد الفتاح يقول بعدها : «كلما أمعنت النظر .. آمنت أن المعركة معركة إيمان .. والشعار الذى يجب أن يرفعه جنود الله شعار واحد : الله أكبر .. تأكدوا أن المعجزة ليست فى سلاح جديد نحتاجه .. لكنها فى الأيدى التى يحركها الإيمان .. فى القلوب التى لا تخاف الموت ..» .

والتفت إلى عبد السلام قائلا : «لماذا كان يتسابق الرجال إلى الموت؟ ولماذا يتطوع المتطوعون الذين لا ينطبق عليهن قانون التجنيد الإجبارى؟ أمن أجل الوطن؟ ثم ما هو الوطن؟ هل هو طين وماء وحدود؟ مستحيل .. إن المبادىء العظيمة هى الموطن والملجأ .. ولا قيمة لوطن بلا حرية أو مبادىء .. عندئذ يستشهد الرجال .. ويأتى النصر ..» .

كانت جليلة تستمع إلى الحديث بشغف، هذه الكلمات الخطيرة الشجاعة تبعث فى نفسها الحيرة والإشفاق، وتجعلها تعيد التفكير فى أشياء كثيرة .. ووجدت جليلة نفسها تقول : «القوة هى التى تحسم الأمور» .

قال الأب عبد الفتاح : «وما هى القوة؟» .

– «طاقة ..» .

– «آنستى .. قوة الآلة غير قوة الإنسان» .

– « كيف ؟ » .

– « آنستى أنا لا أفهم كثيرا فى علوم الطاقة ، ولكنى أعرف أن الآلة لها طاقة معروفة محدودة بوحدة قياس .. لكن طاقة الإنسان متغيرة قد تزيد وقد تنقص ، وعوامل التأثير فى قوة البشر تنبع من أرواحهم .. وقودها المبادىء التى تغمر قلوبهم .. إذا اتفقنا على هذا آنستى فيمكننى أن أقول معك إن القوة هى التى تحسم الأمور .. قوة الآلة وقوة الإنسان ..» .

هزت جليلة رأسها قائلة : « صدقت ..» .

وشرد عبد الفتاح إلى بعيد وقال : «لقد رأيت بنفسى كيف يموت الناس سعداء .. أنت لم ترى ذلك يا آنستى .. أنا رأيته أيام كنا نحارب الصهيونية فى فلسطين كمتطوعين عام ١٩٤٨ وأيام كنا نحارب الانجليز فى القنال .. كان رجالنا يموتون سعداء .. كان عددنا قليلا ، وكانت أسلحتنا بدائية ، ولكننا انتصرنا .. نعم .. فإن اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ لم تكن إلا محصلة النضال الطويل ..» .

وعادت جليلة تقول : «أيمكن أن يسعد الناس وهم يموتون » .

– «نعم يا آنستى ..» .

– «كيف ؟» .

– « عندما يوقنون أنهم ذاهبون إلى عالم أفضل .. أو أن الأبواب قد فتحت لهم كى يدخلوا الجنة .. أو عندما يؤمنون أنهم

ذاهبون إلى الله .. هذه قضية منطقية بسيطة .. لكن الصعوبة المصطنعة تأتى من أن البعض لا يؤمن بروعة العالم الآخر وتميزه ..» .

وقالت جليلة : « وكيف أؤمن بذلك ؟ » .

– « فلتؤمني بالله ابتداء ..» .

– « إنى أؤمن به ..» .

– « إيمانك به يقتضى الإيمان بكل ما جاء فى كتبه ..» .

هزت رأسها قائلة : « فهمت ..» .

نظرت إلى وجه عبد الفتاح ، كانت الحيوية والإشراق والثقة ترتسم كلها على قسماته ، وعيناه كالبحيرة الرائقة ، هل صاحب هذا الوجه كان يشعل الحرب ويقتل الأعداء فى يوم من الأيام ؟ .

عندما همت جليلة بالانصراف قال أحمد فى شىء من التلعثم : « أما زلت تفكرين فى موضوعنا ..» .

ابتسمت فى ألم وقالت : « إننى أحتاج لوقت طويل فى التفكير دائما » .

فى الشارع الطويل فتحت جليلة صدرها للهواء المنعش ، رأسها يكاد ينفجر .. وعبد السلام أخوها إلى جوارها يخطو ويقول : « هذه أسرة عجيبة الشأن ..» .

ولما لم تجب عليه جليلة بشىء قال : «لن أؤجل تجنيدى أكثر من ذلك .. لقد أصبحت أشتاق للذهاب إلى الجيش ..» .

نظرت إليه فى دهشة وقالت : « أنت ؟ » .

- «نعم ..».

- «أخبرنى فتحى أنك تبحث عن وسيلة للهرب من الجيش ..».

طأطأ رأسه وقال : «الحمد لله .. لقد فشلت مساعيه .. وسأذهب ويشرفنى أن أذهب .. أننى أشعر بالتضاؤل كلما رأيت أحمد ..».

- «لماذا ؟».

- «لأنه رجل ..».

تمتمت جليلة فى شرود «هيه .. رجل ..» .. ومضت فى طريقها ..

٧

بدا فتحى فى الأيام القليلة الماضية متوترا قلقا، نظراته تنم عن شىء يخفيه، شارد فى كثير من الأحيان، يختفى ثم يعود للظهور، ويذهب كثيرا إلى لبنان ويعلل ذهابه بالتجارة وبأعمال خاصة بالشركة، لكن الملاحظ أنه عقب كل سفر يعود باشا سعيدا، إن فتحى سريع التحول والانفعال، وإن بدا عليه الهدوء فى بعض الأحيان، والتقت به جليلة برغم ما تكنه نحوه من غضب وعتاب.

قالت: «إنك لا تستحق حبى ..».

قال: «إننى أدعوك للتصييف معى بضعة أيام فى لبنان ..».

قالت فى دهشة: «مستحيل».

– «كيف ؟».

– «لابد من موافقة جهة العمل، ولابد من العملة الصعبة، ولابد من موافقة أهلى أولا .. إن مجرد الصداقة لا تبرر سفرنا معا ..».

قال وهو يسحب من السيجارة نفسا عميقا: «إنك تربطين نفسك بتقاليد بالية ..».

وسعل سعلة خفيفة ثم قال: «ومع ذلك فدعى أمر العملة الصعبة وموافقة جهة العمل لى .. سوف أتكفل بهما ..».

كانت الرحلة مذهلة بالنسبة لجليلة، كانت بيروت تكتظ بالناس، والمجالس غاصة بالمغامرين والتجار ورجال السياسة والأدب والإجرام وأسواق الرقيق، حرية مخيفة، وانفجارات، وأحيانا اغتيالات، ذهب ودماء وورق وبضائع، وغابات من الوحوش الأنيقة، والناس يأكلون ويشربون ويغنون ويصخبون ويسبون ويبيعون ويشترون ..

عاشت جليلة فى غرفة خاصة فى فندق بلازا بشارع الحمراء، ولم ينل منها فتحى سوى الجلسات والرقصات والقبلات المسروقة التى لم تشعر لها بطعم، ودهشت إذ رأت فتحى يعرف عددا كبيرا من الأصدقاء ينفرد بهم، ويأخذ معهم المواعيد.

قالت جليلة : «بعض الصحف هنا تهاجم بلدنا بشراسة».

قال فتحى ساخرا : «والبعض الآخر يمتدحنا بسخاء ..».

– «أليس هذا غريبا ؟».

– «كل شىء هنا يباع ويشترى».

– «يا إلهى ..».

– «تلك هى الدنيا الجديدة ..».

– «إنها دنيا فاسدة لا أمان فيها ..».

– «الأمن مفقود فى كل الدنيا .. نحن نبحث عن المال لنعيش سعداء يا حبيبتى ..».

وصمت برهة ثم قال فى شرود : «والمال يجعلنى أنتقم من

كل الذين سخروا منى، أو عذبوا طفولتى، أو وقفوا فى طريقى ..» .

قالت جليلة فى اشمئزاز : «لقد كرهت كل شىء هنا، وأريد أن أرحل بأقصى سرعة ..» .

– « لا شك أنك تمزحين ، إن أمامنا عملا كثيرا » .

– «لقد جئنا لنسعد .. وأشعر أننى أشعر بالضيق والملل، وأرغب فى العودة إلى القاهرة ..» .

دور السينما يغلب عليها الطابع التجارى الفاسد، أفلام الجنس ودراكولا هى الكثرة، والمسرح لا يهم بناته ورواده سوى الإضحاك .. إنه كأس من الويسكى المخفف .. والشعر يجرفه تيار العبث والهذيان والغموض والرموز، والقصص نزوات جائع، أو غمغمات مصروع، والكتابات السياسية بحر مائج من الأكاذيب والدعاوى يضيع الصدق فى جنباتها .. وتوجد مؤسسات تخصصت فى خديعة الأثرياء والوافدين من أرض البترول .. وقالت جليلة وهى ترمق المشاهد الهائجة : « أريد أن أرحل إلى قمم الجبال ..» .

– « لماذا يا حبيبتى ؟ » .

– « طلبا للهدوء والصفاء والهواء النقى ..» .

– « أنا لا يعجبنى سوى بيروت بدهاليزها وباراتها وسهراتها الحمراء ..» .

– « وأنا أريد أن أفر وإلا اختنقت ..» .

ورحلا صوب جبال الأرز ، كان الطريق طويلا ، والصعود مرهقا بعض الشيء ، لكن جليلة شعرت بسعادة كبرى ، وفتحى إلى جوارها ينفخ فى ملل ويدخن السيجارة تلو السيجارة ، وتمتم : «ما جئت هنا لأشهد الجبال والأحجار والأشجار .. جئت لأرى الناس» .

قالت جليلة وهى تمسح الآفاق الطاهرة بنظرة ولهى : «ما أروع هذا المنظر !!» .

لم يلتفت إليها ، وإنما قال فى سخرية : «ليس هناك أروع من ورق البنكنوت ..» .

- «انظر .. السحاب يبدو أسفل منا .. نحن فوق السحاب ..» .

- «الصعود دائما يحتاج إلى قوة .. طاقة .. المال يدفعنا إلى أعلى ..» .

التفتت إليه فى دهشة وقالت : «ما مناسبة هذا الكلام ؟ إنك تتحدث كثيرا عن المال .. نحن لا ننكر أهميته ، لكن حديثك عنه بهذه الطريقة يبعث على الضيق .. أنت تعانى من حالة هستريا ..» .

وضحك ملء شدقيه ، وقال : «ادعى الله معى ألا يشفنى من هذا الداء ..» .

وبلغا القمة ، وركبا «التليفريك» ، وشاهدت جليلة التلال المحيطة ، والسماء الموشاة بالسحب البيضاء ، والفراغ الكبير

الذى ينزل السكينة على النفس ، وتمنت ألا تعود إلى بيروت مرة أخرى ، وتناولا الغذاء فى كازينو جميل ، وشربا المشروبات المثلجة ، ثم عادا فى المساء ..

هى لا تدرى لماذا وثبت صورة «أحمد عبد الفتاح» إلى ذهنها وهى عائدة ، نظراته الحادة مسددة إليها ، رأسه الحليق ينتصب كالصخرة العاتية التى لا تتزحزح ، وتخيلته يقول لها : «لماذا تسافرين مع رجل غريب؟ لو كنت أختى لقطعت رقبتك ..» وضحكت بصوت عال ، وعجب فتحى لضحكتها التى قطعت حبل الصمت وقال : «لماذا تضحكين ؟» .

قالت : «تذكرت شيئا ..» .

– «ما هو ؟» .

– «شىء يخصنى !!» .

– «لابد أن أعرفه» .

– «كيف ؟ لن أقول ..» .

– «هذا يغضبنى ..» .

– «هناك منطقة لا يمكنك الوصول إليها ..» .

– «كيف ونحن أصدقاء !!» .

– «لا فائدة ..» .

– «أكره الغموض ..» .

– «وأنت هل أطلعتنى على ما بداخلك ؟ هل أعرف كل ما يجرى أمامى !!» .

زم شفتيه ، ثم قال بعد برهة : « إذن تضحكين منى !! » .

– « أفيك ما يبعث على الضحك » .

– «لو عرفت لاسترحت ..» .

وعادت صورة أحمد إلى خيالها ، الرأس الحليق ، والنظرات الحادة ، كثيرا ما كان أحمد يحدثها عن الزى الشرعى للمرأة المسلمة ، إنها يجب ألا تظهر شعرها أو صدرها ، ولا يصح أن يبرز اللباس مفاتنها ، أو يجسم أعضاءها . وتخيلت نفسها فى هذا اللباس ، فعادت تضحك من جديد .

صرخ فتحى فى حدة :

– « لماذا تضحكين ؟ » .

– « لأنى سعيدة ..» .

– « إنك تقتليننى بذلك ..» .

ووضع يده فى حقيبة يده، وأخرج زجاجة صغيرة من الويسكى وجرع بعضا منها.. وقال فى ضيق : «ألا تشربين ؟ » .

– « أنت تعرف ..» .

– « حسنا ..» .

وقالت فجأة :

– « أحمد عبد الفتاح يسميها أم الكبائر ..» .

اشتعل جسده غيظا وقال :

- « هذا الحمار لا يعرف عن الحياة شيئا ..» .

نظرت إليه جليلة فى اندهاش : « ما هذه الثورة ؟ إنه رجل فاضل .. ثم إنه يفهم الحياة على طريقته الخاصة ..» .

- « أتدافعين عنه ؟ » .

- « لماذا تكرهه ..» .

- « لأنه شىء فاسد ..» .

- « شىء ؟ » .

- « نعم ..» .

- « بل رجل فاضل .. يحيا فى شرف ، ويعبر فى صدق ، ويناضل عن إيمان ..» .

قال فتحى وهو يجرع مرة أخرى من الزجاجة السوداء :

- « شبح من الماضى ..» .

- « هذا ما أختلف معك فيه .. إنه إرادة حية فاعلة .. متفاعلة .. يشارك فى صنع الحاضر ..» .

نظر إليها فتحى وقال ساخرا :

- « منذ متى تقولين هذا الكلام ..» .

- « أقوله بعد أن رأيت ما رأيت هنا ..» .

- « لا شك أنك مريضة ..» .

وعاشا فى لبنان أكثر من ثلاثة أسابيع ، كانت بلا شك تجربة ثرية بالنسبة لجليلة ، وعلى الرغم من الاختلافات المستمرة فى

الرأى والذوق ، إلا أن الوئام ظل سائدا ، والعلاقات بينهما بقيت على ما يرام ..

وفى مطار القاهرة الدولى حدثت أمور لم تكن تخطر على بال جليلة ..

لقد انقضت شرطة المطار على فتحى وقبضوا عليه .. قالت جليلة فى التحقيق المبدئى :

– « أنا لا أعرف شيئا .. لقد دعانى لقضاء بضعة أيام للنزهة كصديق .. هذا كل ما جرى ..» .

قال المحقق :

– «نحن نعلم أنك بريئة .. لكن يجب أن تختارى أصدقاءك بعد ذلك بشىء من الدقة والحذر .. تستطيعين أن تنصرفى .. وسوف نستدعيك عند اللزوم ..» .



٨

- «رمضان حبيبى ..» .

هذا ما قاله عبد الفتاح لولده أحمد ،

واستطرد قائلا :

- «فى الأيام السوداء العاتية ، كنت أصوم النهار ، وأضرع إلى الله .. أشعر أن هناك ألفة من نوع غريب بينى وبين هذا الشهر .. كثير من الناس تربطهم بالزمان ارتباطات حميمية .. وأنا لا أخاف الزمان أو أرهبه ..» .

وابتسم أحمد وقال :

- «ورمضان أيضا حبيبى .. فالاشراقات المبهرة فى شوارع القاهرة .. وتوهجات مآذنها .. وابتهالات العابدين العاشقين .. ودقات الطبول .. وترتيل القرآن .. وتلألؤ الروح بأشواق علوية ذات أريج .. كلها تجعلنى أهيم فى دنيا من جمال وورد وطهارة .. أشعر كأنى فى رمضان أقرب ما أكون إلى الله ..» .

والتفت عبد الفتاح إلى زوجه وقال :

- «وأنت يا أم أحمد ألا تحبين رمضان ؟» .

قالت وهى تقترب على عكازها وتبتسم فى رضى : «إنه لشهر كريم .. ذكره الله فى القرآن ، ومجده الرسول .. إنه موسم التوبة والتبتل والرضوان ..» .

وقال الأب : «ما دمنا جميعا نحب رمضان نبش لمقدمه فلنرفع أكف الضراعة وندعو الله جميعا .. قولوا معى «اللهم انصر الإسلام والمسلمين .. وأيد عساكر الموحدين .. واخذل الكفرة والمعتدين .. واقهر بقوتك جبروت الظالمين .. آمين .. آمين ..»» .

لشد ما كانت سعادة أحمد وهو يتجول فى أحياء القاهرة فى الليلة الأولى من رمضان، هذه الفرحة الطاغية لازمته منذ الصغر .. أيام أن كان فى حى الحسين، وفى حى السيدة أيضا .. وفى رمضان يذكر أحمد أن المعركة الأولى التى وضعت اللبنات الأساسية فى مجد الإسلام .. معركة بدر .. كانت فى رمضان .. وفتح مكة أيضا .. ويضحك أحمد، ويخفى ابتسامته الخجول ويتمتم :

– «الغريب أنى رأيت جليلة أول مرة وهى تتزعم مجموعة من الصبايا يتغنين برمضان ويرحبن بمقدمه ..» .

ولدى تذكره لجليلة، وجد أحمد نفسه يتجه صوب منزلها، كان قد سمع جملة ما جرى لفتحى، وإن لم يعرف تفاصيله، ودهش لأنهم سألوا جليلة، وكانت دهشته أكبر عندما علم أنها كانت عائدة من لبنان .. وفكر أحمد منذ البداية أن يزورها، لكن الحرج منعه من ذلك، ومع ذلك فإنها– مهما كان الأمر– جارة لهم، ولابد من المجاملة سواء تزوجا أم لم يتزوجا ..

قال : «كيف رأيت لبنان ؟» .

قالت : «الأماكن كالبشر ، منهم من يروق لك لأول وهلة ومنهم من تصد عنه صدودا ..» .

قال : «وما رأيك فيها ؟» .

– «رأيت شيئا جديدا .. الناس شيء والطبيعة شيء آخر .. عموما الجبال ذات رونق رائع ..» .

قال أحمد : «والحركة الفكرية هناك ؟» .

– «الفكر يميل أغلبه إلى التجارة ..» .

– «والمبادىء ؟» .

– «كالموديلات الحديثة .. يرتديها المفتونون ثم يخلعونها ..» .

– «والحرية ؟» .

– «موجودة على أحط صورها ..» .

– «وماذا عن الحرب فى الشرق الأوسط ؟» .

– «يقولون أنه لا حرب مطلقا الآن ..» .

– «كيف يا جليلة ؟» .

– «المحللون والمحققون يظنون أن المغامرة بالحرب انتحار .. والانتصار على العدو خرافة ..» .

تضايق أحمد وقال : «إن معلوماتهم قاصرة ..» .

– «الكتاب والصحفيون يعتقدون أنهم مصدر المعرفة

الوحيد فى العالم العربى .. أتريد الحق؟ كانت رحلة مشئومة ..» .

وفكر أحمد فى أن يسألها عن موضوع فتحى فقال : « ألم يفرج عنه بعد ؟ » .

بدا التوتر والاضطراب على وجهها وقالت : «مجرد ذكر اسمه يثيرنى ..» .

– « آسف .. أردت أن أطمئن عليك ..» .

– « أنا بخير .. وأنا فى الواقع لا أدرى من هو ؟ أجاسوس ؟ أمهرب مخدرات ؟ لقد سألونا بضعة أسئلة عن أشياء وحقائب وكاميرات تصوير .. وأرونى صور بعض الشخصيات من أصدقائه هناك .. كان رأسى يدور .. وعيناى زائغتين .. شعرت أننى أهوى فى ظلمات سحيقة .. قالوا له عندما قبضوا عليه «لقد وقعت فى الوقت المناسب ، ولن تفلت هذه المرة » ورأيته يبكى ويستعطف ويذرف الدموع كأنثى ، والهلع يسيطر عليه من كل جانب .. سألونى .. وسألوا أخى عبد السلام .. قال لى الضابط «كيف لمثقفة مثلك أن تسقط بين براثنه ؟ » أنا حتى الآن لا أدرى ما هى القصة على وجه التحديد ؟ الصحف لم تشر إليها بكلمة .. وطلب منا المشرفون على التحقيق ألا نذيع شيئا ..» .

كانت الدموع تتأرجح فى مقلتيها ، والشحوب يسود وجهها ، ترى ما مصيرها بعد تلك الصدمة التى كادت تصرعها فى عالم الحرية والانطلاق الذى آمنت به ، وتمتمت :

– «كدت بأن أكفر بكل الرجال ..» .

– «لهذا كرهت الفلسفة ..» .

– «ماذا تقصد يا أحمد ؟» .

– «الفيلسوف تؤثر تجربته الخاصة فى فلسفته .. ثم يحاول أن يعمم نظريته على كل الناس .. أنت مثلا صدمت فى رجل خائن .. وتريدين بسبب ذلك أن تدمغى كل الرجال بالفساد .. هذا ليس عدلا .. الرجال بمئات الملايين .. وفتحى هو ليس كل الرجال .. انظرى إلى الشارع .. ألوان شتى .. نساء محتشمات وعاريات ، لصوص وأتقياء ، مبتسمون ومكشرون .. متحدثون وصامتون .. دنيا ..» .

صمتت جليلة برهة ثم قالت :

– «ماذا لو أخبرتك أننى أحببت ذلك الرجل يوما ما ؟» .

– «هذا أمر الله ، ولا حيلة لنا فيه ..» .

– «وما حكمك على امرأة مثلى ؟» .

– «لا شيء سوى أن نظرتك وعاطفتك قد جانبها الصواب ، وكلنا معرض لذلك ..» .

قالت :

– «برغم لطفك وفلسفتك الحانية ، فإنى أشعر بتعاسة عميقة ..» .

– «أنت إذن من معدن طيب ..» .

– «أتراني أسمع صوت عقلك أو قلبك ..» .

– « ندائى يتلون بهما معا .. وأنا رجل أخاف الله وألتمس العذر للبشر ..» .

ابتسمت أخيرا وقالت :

– « أنت الذى أصبح أخصائيا اجتماعيا ..» .

عادت تنظر إلى وجهه السمح ، وإلى نظراته الطاهرة ، ورأسه الحليق ، ثم قالت : « إن حادثا واحدا يراه الإنسان فى الحياة أثمن من مليون نصيحة ..» .

وهب أحمد واقفا

قالت :

– « إلى أين ؟ » .

قال :

– « عائد إلى الميدان » .

– « الميدان لم يعد ميدانا .. ساحة للنوم والثرثرة واللعب وتمنيت أن تنطلق الشرارة ، ويشتعل الأفق ، وتصرخ أبواق الحرب فى كل مكان .. نريد حربا حقيقية نتعذب فيها ونجاهد وننزف ونموت .. ونحيا .. نريد نارا حامية تطهرنا من أوزار الظلم والخوف والهراء ..» .

وعاد أحمد يقول :

– « عائد إلى الميدان ..» .

ضحكت فى سخرية :

– «هل سمعت النكتة الشهيرة؟ «الانسحاب فى السحاب» ..» .

قال ونظراته تحملق إلى بعيد :

– «رأيت العدو عن كثب .. كان يخاف ويبكى .. ويقبل قدمى كى لا أقتله ..» .

وصافحها وهو ينصرف ويقول :

– «كل رمضان وأنتم طيبون» .

٩

«إن أمورا غير عادية تجرى هنا»

هذا ما ردده أحمد عبد الفتاح، لقد شعر بالظمأ منذ الصباح، فهو لم يتناول سحوره، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يشعر بنشاط وحيوية لا عهد له بهما، وعاد يتطلع إلى الدشم والحصون وقواعد الصواريخ والدبابات المغطاة وعربات الشحن، وحركة الجنود الدائمة على الشاطىء الغربى للقناة.. ثم تطلع إلى «خط بارليف»- الأسطورة المخيفة- على شاطىء القناة الشرقى، لكن الصمت يغلف المكان هناك.. هذا يوم الغفران أو التكفير كما يسميه اليهود.. وفى هذا اليوم يحرم العمل عندهم..

لكن أحمد يشعر أن هذا اليوم- العاشر من رمضان- ليس كاليوم الذى سبقه، إحساس خفى يراوده، وأحلام غريبة شاركته فى نومه ليلة أمس، أحمد يعلم أن علماء النفس- وعلى رأسهم فرويد- ينظرون إلى الأحلام نظرة خاصة، ويعتبرونها مرتبطة بالجنس والكبت والخوف أو الهموم.. ربما.. لكن هناك الرؤيا الصادقة.. رؤيا سيدنا يوسف.. ورؤيا السجناء الذين عاشوا معه فى سجنه.. ورؤيا محمد رسول الله.. ثم تجربته الذاتية.. لقد رأى أحمد فى حياته عديدا من الرؤى الصادقة..

واقترب الرقيب عرفان من أحمد وهو يرتجف : «لقد دنت الساعة ..» .

– « ماذا تعنى ؟ » .

قال عرفان وهو يشير بإصبعه : « انظر ..» .

ونظر أحمد .. كانت هناك آلاف الزوارق المطاطية .. والأجزاء والأدوات الخاصة بالجسور المؤقتة ، وآلات الرصد .

– « أهناك هجوم متوقع علينا ؟ » .

هذا ما قاله أحمد ، فرد عرفان :

– « هذا هو اليوم الذى انتظرناه من سنين ..» .» .

صرخ أحمد وهو لا يكاد يصدق : «كيف ؟ » .

– « إنها الحرب الرابعة .. وسنعبر القناة إلى سيناء ..» .

نظر أحمد إلى خط بارليف وهو لا يكاد يصدق : « هل يتحقق الحلم ..» .

– « لا مجال للكلام ..» .

اغرورقت عيناهما بالدموع ، وتمتم أحمد : « إلهى أنت تعلم أنك وهبتنا الحياة .. وهى لك .. ولن نضرب ضربة إلا فى سبيلك ، ولا نحارب إلا من أجل نصرة المبادىء التى أمرتنا به .. فخذنا إليك شهداء .. أو احفظ لنا حياتنا مؤمنين منتصرين شرفاء ..» .

ثم أمسك بيد عرفان وقال : « هذه أول مرة أخاف فيها خوفا حقيقيا ..» .

هتف عرفان : «لماذا ؟» .

– «كنت أخرج وحدى أو ضمن مجموعة صغيرة وأعبر إلى العدو ، كان الأمر بالنسبة لنا هينا .. لكن الأمر اليوم يختلف كل الاختلاف .. إنه مصير أمة ، ومستقبل جيش .. إننا نقف على أعتاب يوم مشهود .. وأمامنا عدو غادر لن تغسل عاره آلاف أعياد الغفران .. إن ما نطلبه من الله هو النصر والرحمة ..» .

ثم صمت برهة وقال :

– «ومتى نبدأ ؟ إن الثوانى تحرق أعصابى ..» .

– «القيادة عندها الخبر اليقين ..» .

جفف «أحمد عبد الفتاح» دموعه ، ثم أخذ يتفحص ملابسه وسلاحه ، وهرول إلى أحد الزوارق المطاطية .. تحسسه بيده .. قبله فى حنان .. لم يعد الزورق مجرد أداة أو آلة .. لكأنما دبت فيه الحياة ، أصبح كائنا نابضا بالعواطف والمشاعر .. إن ألفة غريبة تنمو وتترعرع بين أحمد وبين الزورق .. بين أحمد وبين القناة .. بينه وبين شهر رمضان .. إن أحمد يفنى .. يذوب فى الكائنات وفى الوجود من حوله .. لم يعد يشعر بأى ظمأ .. إن روحه تفيض بالشبع والرى .. وصاح بأعلى صوته : «الله أكبر .. هذه معركة الله ..» .

كان صوته مبحوحا ، وهرول عرفان إليه وسد فمه وهو يقول : «هل جننت ؟ إن مشاعر الجنود متوترة ، ونريد أن يمضى كل شىء فى هدوء وتكتم ..» .

وتقاطر العرق على جبين أحمد ، وأخذ قلبه يدق فى عنف ، كان جسده ينتفض .. احتضن عرفان .. ضغط على جسده فى حب .. «من أنا ؟ أشعر أن رأسي يسمو ويسمو ويلامس السحاب .. إن هامتى تخترق الآفاق وتقترب من السماوات العلى .. رأيت رسول الله فى منامى يرفع سيفه ويسير أمامنا .. قلت له خذنى معك يا محمد .. خذنى معك يا حبيب الله .. وابتسم لى .. أشرقت دنياى بالفرحة .. رأيت الخلود والجنة والصفاء الأسمى .. وسرت عن يساره وأبى يمينه .. وأخذنى حبيبى .. كانت السحب تقبل وجنتى ورأسى الحليقة .. وكانت الملائكة ترفرف بأجنحتها البيضاء .. والآفاق كلها تردد «الله أكبر .. الله أكبر ..» وهو صلوات الله عليه يبتسم فى حنان .. قلت له خذنى معك يا محرر النفس والروح من ذل العبودية .. يا حبيب الله .. بكلمة واحدة رد على .. «أنا معكم ..» وأفقت من نومى أبكى .. كدت أجرى على الشواطىء الصامدة وأوقظ النائمين .. وأهتف بما رأيت .. لكنى أمسكت بلسانى وغمغمت : «اصمت يا أحمد ..» .

قال الرقيب عرفان : «ماذا تقول ؟ هل أصابتك نوبة ؟» .

هز أحمد رأسه وفتح عينيه وقال :

– «هذا يوم المنى .. يوم النصر إن شاء الله ..» .

– «تلك معركة الصائمين ..» .

– «وسيكون الإفطار على الشاطىء الآخر ..» .

- «أقسم لك .. أول زاد يدخل معدتى سيكون تراب سيناء ..» .

وقال أحمد : «وسوف أؤذن للصلاة هناك .. على الشاطىء الآخر .. وسوف أؤم الرفاق للصلاة ..» .

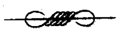
وضاعت الكلمات وسط خضم الضجيج الهائل ، إن موجة عاتية من طائرات الجيش المصرى قد شقت الأجواء واندفعت إلى سيناء طبقا للخطة المرسومة واشتعلت الأرض والصدور والسماء بالنار المقدسة .. ونسى أحمد الدنيا وراءه .. فلم يعد يذكر أهلا ولا فلسفة ولا آلاما ماضية ..

موجة أخرى من الطائرات ..

المدافع أخذت تهدر ..

القطع السوداء الصغيرة- الزوارق- متراصة إلى ما لا نهاية .. حيث لا يكاد يرى لها آخر ، هنا يتالق جوهر الإنسان االمؤمن فيقهر كل الماديات ، ويسخر من المخاوف ، ويطأ بقدمه كل الأحقاد القديمة ، والمطامع الدنيوية التافهة ..

وجثا أحمد على الأرض وهو مدجج السلاح ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وأخذ يردد الدعاء الذى كان الرسول يردده يوم معركة بدر ..



١٠

الموت شيء مهول، لكن هناك أوقات يرخص فيها الموت ويبدو حدثا عاديا من أحداث الحياة، وذلك عندما يصبح للموت غاية كبرى وهدف نبيل.. تلك مجرد خواطر تدور فى ذهن أحمد عبد الفتاح وهو يحمل أمتعته وأسلحته وينطلق إلى الآلات البرمائية، ويندفع إلى الشاطىء الآخر، إنه يعبر إليه فى وضح النهار.. شمس العاشر من رمضان تميل نحو الغروب، والجنود يسابقون الليل سراعا نحو تراب سيناء، والملحمة الكبرى تدور رحاها فوق سطح ماء القناة، وفى السماء وعلى ثرى سيناء الخضيب..

تطلع أحمد إلى حصون خط «بارليف» الضخمة.. الساتر الرملى الكبير يمتد ويعلو كجبل.. وخراطيم الماء الهائلة تدق سفح الساتر الرملى فيذوب وينهار، والرجال البواسل ينطلقون من القناة إلى الفجوات، لا يعبأون بالأسلاك الشائكة التى تمزق بشرتهم، ولا بالرصاص الذى ينهال فوقهم، ولا بالألغام التى تعتم النهار وتحيله إلى سحابة هائلة من الغبار.. وأدرك الجنود أنهم أمام الحاجز الكبير، والحصون الأسطورية التى تحدث عنها العالم كله، ليتحدث العالم أو لا يتحدث، فقد وقعت الواقعة، وأصبحوا وجها لوجه أمام عدوهم.. ولا مفر..

وانطلقت الصيحة الخالدة « الله أكبر » دوت كالرعد القاصف .. امتزجت بصوت الانفجارات، وزئير الطائرات، ودمدمة الرصاص، وأنين الجرحى، وهدير الدبابات والعربات .. قال الرقيب عرفان : « هذا المكان من خط بارليف حصين .. ونستطيع الوصول إلى بعض ثغراته .. أى أن نقذف بالمتفجرات من هذه الثغرات ..» .

وقبل أن يجيب الضابط القائد على رأى عرفان تقدم أحمد وقال والغبار يكاد يطمس ملامح وجهه : « أخى القائد .. إنهم فى رعب وأرى أن نطلب منهم التسليم .. نحن فى مأمن .. وهم قد يستسلمون .. وذلك يفيدنا كثيرا ..» .

وراقت الفكرة للجميع، وتقدم أحمد بالقرب من مدخل الحصن الأسطورى وهتف : « خير لكم أن تلقوا السلاح، وتسلموا أنفسكم، نستطيع القضاء عليكم .. لاجدوى من المقاومة أمامكم ثلاث دقائق .. الله أكبر ..» .

وساد صمت قصير عاصف، الجميع يرهفون آذانهم لما يجرى، وعيونهم مفتوحة ترصد كل حركة، ذهب التردد والخوف، ولم يعد أمام الرجال سوى الوثوب والتقدم والضرب .. وترنم أحمد عبد الفتاح بقصيدة قديمة قرأها منذ عشرة أعوام .. كانت تحكى عن ذكريات النضال يوم تقسيم فلسطين .. يوم أن دخلت الجيوش العربية إلى أرض الميعاد عام ١٩٤٨ .. أخذ أحمد يدندن بهذه الأبيات ..

مــاذا ورائــك يــا رمــال الــبــيــد
أعــزيــف جــن أم زئــيــر أســود
دوى الـفـضـاء فـأى حـشـد زاحـف
غـمـر الـبـقـاع وأى خـفـق بـنـود
فـتـفـائـلـى بـالـنـحـس يـا مـولـودة
بـين الـقـبـور فـأنـت شـر ولـيـد
بالأمس كان أبوك يفترش الحصى
ويـتـيـه بـين الـصـخـر والجـلـمـود
فـاتيت أنت ومـا ضـحكت لحادث
إلا بــفــقــد شــبــابــك الموءود

كان أحمد يغمغم بالأبيات، ويطرب لموسيقاها، وينظر إلى باب الحصن، ثم يعود وينظر إلى ساعته. وقبل أن تنتهى الدقائق الثلاثة سمع صوتا يهتف بالعربية الواضحة : «نحن قادمون .. لكننا خائفون من القتل ..» .

أشار القائد إلى أحمد كى يرد فقال : «نحن لا نقتل أسرانا» .

– «أتقسم بشرفك العسكرى ..» .

– «أقسم بالله ..» .

وظهرت رأس القادم ويداه المرفوعتان .. كأن ظهره إلى الرجال .. وهتف : «أين أنتم ؟» .

– «نحن وراءك .. بل نحن فى كل مكان ، أين رفاقك ؟» .

– «هم قادمون ..» .

- « لا تدعهم ينصبوا شراكا ، أو يدمروا أجهزتهم وإلا حل قتلهم ..» .

خاطبهم بالعبرية ، وسمع بالداخل نواحا واستغاثة فعاد قائد المجموعة اليهودى يناديهم كى يأتوا ولا يخافوا من القتل .. كانوا ثلاثة غير القائد ..

- « وأين بقيتكم ..» .

- « ماتوا ..» .

وربط أحمد أيديهم من الخلف ، وجردهم من كل ما يملكون ، ثم طلب منهم أن يدخلوا الحصن ويشرحوا له مداخله ومخارجه وأماكن الذخيرة ، والإشارات اللاسلكية والطعام والراحة .. وحذرهم من أى خدعة ..

كانت الدموع فى عين الأسرى ، وأجسادهم ترتجف هلعا ، قال قائدهم الشاحب الوجه : « هم لا يصدقون أنكم ستبقون على حياتهم » .

وبعد التأكد من نظافة المكان ، وخلوه من أى كمائن ، أمر القائد المصرى بنقل جثث القتلى إلى مكان مناسب وتسجيل أسمائهم وهوياتهم ، ثم طلب إجراء تحقيق عاجل مع الأسرى ، سألهم فيه عن إمكانات كل وحدة فى خط بارليف ، وعدد الجنود فيها ، وعن نظام العمل ، وطريقة الدفاع ، ومدى الصمود المتوقع ، وأنواع السلاح ، والشفرة وغير ذلك من الأمور

العسكرية الهامة ، ثم طير هذه الأسرار إلى القيادة العامة على الفور ..

وبعد أن انصرف القائد ، ترك النقيب عرفان وأحمد وأربعة من الجنود الآخرين ..

سأل أحمد الضابط اليهودي الأسير : «ماذا كان شعوركم عندما كان العبور الكبير» .

قال الضابط بصوت واهن : «ما تصورنا قط أنكم قادرون على العبور ..» .

– «لكنه كان احتمالا قائما ..» .

هز كتفيه وقال : «كان قادتنا يستبعدون ذلك ، ويعتقدون أن العبور معناه أن تتحول القناة إلى مقبرة كبيرة لجنودكم .. وحتى لو عبرتم كان خط بارليف قادرًا على إبادتكم .. لم يكن هذا رأى قادتنا وحدهم ، بل كان رأى الخبراء العالميين فى الشئون العسكرية .. ولهذا كنا آمنين مطمئنين .. وعندما بدأنا العبور كنا موقنين أنها مجرد لعبة خطرة لوقت محدود .. فى مكان محدود .. أنا حتى الآن لا أتصور أن هذه القوات الهائلة والأسلحة الكثيرة استطاعت أن تعبر إلينا فى الشاطىء الشرقى .. إنه أشبه بالمعجزة ..» .

وصمت الضابط الإسرائيلى برهة ثم قال : «لقد حاربتكم فى عام ١٩٦٧.. وحاربت اليوم .. عندما احتدمت المعركة اليوم لم

أصدق عينى .. إننى أعيش فى حلم حتى الآن .. مستحيل .. مستحيل ..» .

ثم أجهش الضابط بالبكاء وأخذ يردد : «تلك هى النهاية !! إننى لن أعود إلى زوجتى وأولادى .. ليتك يا أبى بقيت فى المغرب .. ليتك لم تهاجر .. نحن أحجار على رقعة الشطرنج .. يلهو بنا الكبار .. وأنتم اليوم تتسلون بأحزانى وسوف تقتلوننى ..» .

ثم جثا على الأرض ، وأخذ يقبل أحذية الجنود ويستعطفهم ويطلب منهم العفو والرحمة وألا يقتلوه ، وأكد لهم أنه على استعداد للإجابة على أى سؤال ثمنا لحياته .

ودارت برأس أحمد تساؤلات عديدة ، ها هو الجندى الإسرائيلى بلحمه ودمه وفكره ، أين التفوق الحضارى الذى تحدثوا عنه ؟ وأين الشجاعة التى تحدثت عنها وكالات الأنباء ، ورددتها الصحف ، وترجمتها الأفلام السينمائية ، وعلق عليها المحللون والمفكرون . وغمغم أحمد وهو يرى الوجوم على وجوه الأسرى التعساء :

– «قال أبى ذات مساء أن جوهر الإنسان هو إيمانه ..» .

وهب أحمد واقفا ، وأخذ يصيح بأعلى صوته :

– «الله أكبر .. الله أكبر ..» .

ومضى فى ندائه حتى أتم آذان المغرب وأم بعض الحاضرين فى صلاة الجماعة ، بينما وقف الآخرون مدججين بالسلاح

للحراسة ، ثم آن أوان الإفطار .. قبل عرفان الأرض الطيبة ثم لعق شفتيه وهو يتمتم « بررت بوعدى » وتناول الرجال قليلا من الطعام ..

وقال أحمد : « اشربوا جيدا لتتقوا الظمأ .. المعركة طويلة .. وسيناء واسعة .. والحرب دائرة وقاسية .. والله أكبر ..» .

كانت الآفاق تدوى بالتكبير ، وأرتال الدبابات والعربات تتدفق من فوق الجسور إلى سيناء .. العبور الكبير .. أكبر عبور فى التاريخ ما زال مستمرا .. والسماء ترعد ، والأرض ترعد .. والوطيس الحامى يغسل عار الماضى ، ويمحو الذنوب ، وينقى القلوب من أدران الغرور والشرك وعبادة الأوثان .. عبادة الرجال الطغاة .. وقلاع العدو تتساقط واحدة تلو الأخرى ، ثم جاءت عربة ووقفت فى انتظار حمل الأسرى الأربعة إلى مكان مجهول ..

قال أحمد : « هذا أسعد يوم فى حياتى .. لو مت الآن لكنت أسعد شهيد على ظهر الأرض ..» .

قال عرفان :

– « الرحلة طويلة ، والطريق وعر ..» .

وجاشت مشاعر أحمد وهو يقول : «لقد مات إخوة لنا ..» .

– «كانوا سوف يموتون يوما ما ..» .

– « نعم ..» .

– « المهم .. كيف نموت ؟ » .

– «﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾..» .

– « صدق الله العظيم ..» .

– «ماتوا فى غمرة الزحف الكبير الصاعد إلى الله ..» .

– « هنيئا لهم يا أحمد .. كانوا صائمين ..» .

قال الضابط الإسرائيلى وهو يهم بالصعود إلى العربة التى ستنقلهم إلى المكان المجهول : «لقد رأيت جنودا يلبسون أردية بيضاء » .

قال أحمد : « أردية بيضاء ؟ » .

– «نعم .. من أى سلاح هم ؟ » .

– « لا شك أنك كنت تحلم » .

– « رأيتهم بمنظارى .. كنت فى كامل وعيى ليس من عادتكم أن يلبس الجنود هكذا ..» .

ابتسم أحمد وقال : « إن الصدمة قد ذهبت بعقلك ، وسنكتب لك توصية لتعرض على طبيب نفسى ..» .

– « أقسم أنى أقول الحقيقة .. صدقونى ..» .

تبادل الرجال النظرات ، وهزوا أكتافهم فى حيرة وتمتم الرقيب عرفان فى انبهار : «الله أعلم .. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ..» .



١١

خرجت جماهير الأمة العربية فى كل أرض تهتف للعبور الكبير ، وهزتها نشوة الفرح عند إعلان سقوط خط «بارليف» ، وكبّر الناس فوق المآذن .. لقد بدأ عهد جديد ، وأصاب الفزع الدوائر الاستعمارية والصهيونية ، وخاصة أن الجيوش السورية اقتحمت خطوط وقف إطلاق النار فى الجولان ، وأن القوات العراقية والجزائرية والمغربية والسودانية والسعودية والليبية والكويتية قد اشتركت فى المعركة ، إن النجاح المبدئى قد هز مشاعر الملايين ، وكانت الضربة المفاجئة سببا لذهول عام ، وحاول العدو أن يطمس معالم الحقيقة ، بعد أن استطاع الطيران العربى أن يسدد ضربته القاضية لمراكز قيادية كثيرة فى سيناء ، وبعد أن تمكنت الصواريخ المصرية من إسقاط طائراته وإفشال هجماتها سواء فى ساحة المعركة أو فى العمق .

هبت أم أحمد من رقدتها ، وحاولت أن تزغرد ، ثم قالت : « إن ولدى سلامة لم يمت .. هذا النصر هو الثمن الذى انتظرته .. سلامة لم يمت ..» .

وقال زوجها عبد الفتاح : «يجب أن أفعل شيئا ..» .

– «ماذا تنوى أن تفعل ؟» .

– «على الأقل أشترك فى المقاومة الشعبية فى منطقة القنال .. فى السويس أو فى بورسعيد أو الإسماعيلية .. يا ويل من يفوته الاشتراك فى هذا اليوم العظيم أو فى تلك المعركة المقدسة ..».

قالت زوجته : «إفعل ما شئت .. الناس كلهم قد طغت عليهم موجة الحماس ..».

إنها الحرب الشاملة، وفى أيام الحرب تتبدل الأحوال، وتشح الأقوات، وتنتعش السوق السوداء، ويهرول الناس ويتزاحمون لشراء البضائع والمواد التموينية، ثم يقومون بتخزينها، وينكمشون فى دورهم أو خنادقهم، ويتكاسلون عن أداء أعمالهم .. لكن ذلك لم يحدث هذه المرة .. الناس يروحون ويجيئون، يمارسون حياتهم العادية فى رضا وسرور، حتى الأصناف أو السلع التى شحت أو اختفت لم تثر فى نفوسهم الضيق أو الغيظ، كل شىء يهون إلا الوطن والعقيدة، ونسبة الجرائم انخفضت إلى معدل لم يسبق له مثيل، حتى الذين انحرفوا واحترفوا اللصوصية وارتكاب الجرائم المختلفة قد شملتهم النخوة الوطنية، وانشغلوا بالأحداث الكبار، والعاملون حريصون على انتظام العمل وزيادة الإنتاج، حماية لظهر المقاتل ..

وتزداد المعركة عنفا، وتتراجع قوات العدو، وتخلف وراءها أكداسا من الذخيرة والسلاح والدبابات الجديدة

الصالحة للاستعمال ، ويستسلم الأسرى بأعداد كبيرة ، وتسود المجتمع الإسرائيلى موجة من الارتباك والاضطرابات ، ويتبادل الأعداء الاتهامات من المسئول عن تلك الكارثة ؟ ويلقون باللوم على القيادات العسكرية عندهم تارة ، وعلى المسئولين السياسيين تارة أخرى ..

وتستغيث الصهيونية بأعوانها ، وعلى الفور تقام الجسور الجوية لنجدة المنهزمين ، حيث تشحن لهم أحدث الأسلحة وأخبثها ، أدوات تظهر فى المعارك لأول مرة فى التاريخ ..

إن أمريكا تفعل ذلك لإنقاذ حليفتها .. ويتوتر الجو العالمي ، وتصدر أمريكا قرارا بإعلان حالة الاستنفار العام أو التعبئة العامة فى قواعدها العسكرية فى معظم أنحاء العالم .. إن كوكبنا على شفا الهاوية .. قد تندلع حرب ذرية لا تبقى ولا تذر .. والرعب يسود العالم بسبب نزوات الصهيونية ، وخبث إسرائيل .. وتتردد التعليقات هنا وناك .. فى الشرق والغرب ..

– « إسرائيل ستجر العالم إلى الدمار ..» .

– « إسرائيل لعنة حاقت بالشرق والغرب ..» .

– « إسرائيل أسوأ مثل للعنصرية العمياء ..» .

– « إسرائيل ستتسبب فى خراب أوروبا ..» .

– « إسرائيل تتظاهر بالسلام وهى دولة حرب وتوسع ومطامع وأحقاد ..» .

ثم تأتى الضربة القاصمة التى يترنح تحتها العدو .. لقد أعلن

العرب قطع البترول العربى عن كل الدول التى تتنكر للحق العربى ، وتنحاز لصف العدو الظالم .

وانبعثت الصرخات فى كل الأنحاء .. المصانع سوف تتوقف عن العمل .. أوروبا وأمريكا سوف تعانيان من شتاء بارد طويل .. خسائر الشركات والمصانع بمئات الملايين من الدولارات .. الطائرات تخفض عدد رحلاتها .. الناس يركبون الدراجات بدل السيارات .. تحديد ساعات الإضاءة فى لندن وغيرها من العواصم العالمية .. وعديد من الإجراءات .. العالم يكاد يجن ، لماذا كل هذا ؟ أمن أجل تعنت إسرائيل ومطامعها ؟

لماذا يتحرك العالم لنجدة إسرائيل ، ولم يفكر يوما فى إنقاذ اللاجئين الفلسطينيين وإعادتهم إلى أرضهم التى طردوا منها ، والتى عاشوا عليها طوال حقب التاريخ ؟

قالت جليلة لشقيقها عبد السلام : « العالم لا يفهم سوى لغة القوة والمصالح ..» .

– « ألا يمكن أن ينتصر الحق وحده ؟ » .

– « ربما .. إذا أصبح عالمنا بلا أنياب أو مخالب ..» .

قال عبد السلام فى توتر : « ماذا على أن أفعل ؟ » .

قالت جليلة وهى ترمقه من طرف خفى : « أن تسلم نفسك لأقرب مركز للتجنيد ..» .

تذكر عبد السلام الناس فى الشوارع وهم يضعون الترانزستور على آذانهم ، والنسوة اللاتى كن يزغردن وهن

يشاهدن الطائرات المعادية وهى تسقط محترقة ، وتذكر أفواج الرجال والفتيات التى تتزاحم لدى مراكز الدفاع المدنى والتطوع للمقاومة الشعبية ، وعربات الجيش وهى تحمل الرجال الذاهبين إلى الميدان وهم يلوحون ببنادقهم ويبتسمون فى سعادة ، ويهتفون «الله أكبر» .. لقد أصبح الشعب صفا واحدا .. توارت الأحقاد القديمة ، والذكريات المريرة ، والصراعات الطائفية وذيول المحن السياسية .. الأرواح كلها تتعانق ، والأيدى تتلاقى ، والجميع يتبادلون القبلات . «رمضان كريم .. شهر مبارك .. لقد جاء رمضان بالفرحة الكبرى .. شهر الصوم والعبادة والجهاد ..» .

وخجل عبد السلام من هواجسه القديمة ، لماذا كان يكره الالتحاق بالجيش ؟

قال : «سوف أذهب الآن يا جليلة .. إننى أستعجل الأيام كى ألحق بالرجال هناك .. الرجال الذين رفعوا أعلامنا على قمم سيناء ..» .

اقشعر بدنها .. شعرت بنشوة عارمة تهز كيانها .. وتسرى مع نبضاتها .. ترقرقت الدموع فى عينيها ، كان قلبها يدق فى عنف ، وجرفتها دفعة حماس كالطوفان وصاحت «الله أكبر ..» .

ابتسم عبد السلام ... جففت دموعها .

قالت : «سآتى معك .. سألتحق بركب الممرضات .. وسأطلب الذهاب إلى أقرب مكان من المعركة ..» .

دق جرس الباب ... شدت الأنظار نحوه .. ودخل شاب وسيم هادىء ومعه قصاصة ورق ، نظر إلى جليلة ..

– «ماذا هناك» .

– «السيد فتحى يريد منك أن تزوريه فى السجن ..» .

صاحت بحدة : «لا أريد ..» .

– «من الأفضل أن تقابليه .. وفى مقابلتك له مصلحة عليا ..» .

صمتت برهة ، ثم قالت : «متى ؟» .

قال الطارق : «غدا .. فى العاشرة» .

– «حسن .. سوف آتى دون رغبة ..» .

– «شكرا يا آنستى ..» .

– «ألا تشرب الشاى ؟» .

ابتسم فى أدب وقال : «كلنا مشغولون بالأحداث الكبار .. عندما تعم الفرحة الكبرى ، ويتم النصر سوف نشرب الشربات ..» .

وبعد أن انصرف ، قالت جليلة : «لعنة الله على ذلك اليوم الذى عرفته فيه ..» .

– «هذا قدرنا يا أختى ، لقد غرقت فى خجلى وعرقى وهم

يسألوننى عن صلتى به .. لو كان أخى أو ابن أخى لتبرأت منه .. يقولون أنه متهم بالتجسس لحساب العدو ..» .

قالت جليلة وقد شحب وجهها : « شيء ما كان يشدنى إليه ، ثم يبعدنى عنه .. كنت قلقة معه .. وخائفة منه .. لا أنكر أننى تمنيت الزواج منه حتى أستقر وأنجو من ذلك القلق .. لكن ما ذنبى .. إن هناك أمورا كثيرة فى الحياة لا يمكن إدراكها وفهمها إلا بالتجربة .. كنت دائما أحاول أن أنأى بنفسى عن الأحكام المسبقة ، ولا أتهم الناس إلا بعد معرفة يقينية .. لم أصدق مشاعرى الداخلية بالنسبة لفتحى .. كنت أراه نشطا .. فى يده المال .. يجيد الحديث مع النساء ، يرقص ويعيش بلا قيود .. ظننته بلا عقد نفسية .. لديه الطموح الكافى .. ويوم سخر من الوطن والوطنية والحرب .. يومها حدثنى عن ذكريات قديمة .. ذلك الذى صفعه على قفاه .. عندئذ أدركت أنه مثل غالبية البشر تحكمه عقدة قديمة .. الحق يقال أنا فتاة فقيرة فى مجال التجربة .. كانت الصدمة قاسية يا عبد السلام .. وكان يجب أن أفهم أن فى الأمر شيئا منذ أن ذهبت معه إلى لبنان .. لكن هذا قدرى !! والآن اذهب أنت .. من يدرى ؟ قد نلتقى هناك فى ساحة الحرب والحرب يا عبد السلام هى المطهر العظيم .. وهناك سوف نلتقى بالرجال الأوفياء المؤمنين ونشهد بأعيننا ما يروونه لنا من معجزات ..» .



١٢

ذهبت جليلة إلى السجن، المكان مكتئب صامت، شعرت برهبة وهى ترى القضبان والسجانين والملابس الزرقاء المقبضة، وشعرت أيضا بالخجل، فهى فتاة كريمة جميلة وتأتى إلى هذا المكان، ومن يراها سوف يرجح أنها قريبة لأحد السجناء، عندئذ تمنت جليلة أن تصرخ بأعلى صوتها : أنا لا أعرفه .. أنا أبرأ منه .. ومضت فى طريقها منكسة الرأس، خافقة القلب، تلعن الظروف التعسة التى جرتها إلى هذا المكان .. وسمعت صوتا خفيضا يهمس إلى جوارها : «ماذا عن أخبار الحرب؟».

والتفتت فإذا بسجين يحمل على عاتقه قفصا كبيرا مليئا بالأوراق، ابتسمت له إشفاقا وقالت : «الله معنا، وسوف ننتصر بإذن الله».

ورأت الباشسجان يدفع السجين إلى الأمام، ويمنعه من التحدث مع الزوار ..

– «حتى هؤلاء يتابعون أخبار الحرب؟».

قال الضابط المرافق : «لقد تبرعوا بدمائهم، وببعض الأموال، وقدموا عريضة لمدير السجن يطلبون فيها السماح لهم

بالتطوع فى الحرب ، والعودة إلى السجن بعد المعركة لتكملة مدة العقوبة ..» .

قالت جليلة : «الإنسان يعجب من هذا التناقض .. إننا نرى فى سلوكهم الخير والشر ..» .

قال الضابط : «قد نختلف معهم حول قيم الحياة ومبادئها .. ولكنهم وطنيون .. حب الوطن أمر لا خلاف عليه ..» .

وظلا سائرين ، ثم استطرد الضابط : «إنهم يتكدسون حول الصحف اليومية ، ويقرءونها فى نهم عجيب .. وبعض السجناء من الجنود السابقين ، وهؤلاء يتطوعون بشرح ما غمض من الأعمال العسكرية ..» .

عندما التقت جليلة بمدير السجن أخبرها أن فتحى عضو في شبكة تجسس خطيرة ، وأنه كان حلقة اتصال بين بعض الخونة فى الداخل ومعظمهم من الأجانب ، والخونة فى الخارج . وقد قام بتسجيل قدر كبير من الاعترافات بعد أن أكدوا له أن الاعتراف ومساعدة العدالة هى الطريق الوحيد لتخفيف العقوبة عنه ، وربما إنقاذه من العقاب ، ومع ذلك فإنه لم يقدم كل ما لديه من أسرار ، إن بعض أفراد الشبكة فروا للخارج ، أو بمعنى أصح كانوا فى الخارج أثناء الانقضاض عليهم ، والبعض ما زال حرا طليقا .. وطبيعة المعركة المقدسة التى تخوضها البلاد تفرض على الجميع اليقظة والوعى الكامل بكل ما يجرى ، وتضييق الخناق على العدو وأذنابه .

وقال المدير : «فى إمكانك أن تقنعيه بأن يستجيب لمطالبنا نحن نعلم مدى حبه لك ..» .

قالت جليلة فى ضيق : «هذا لا يشرفنا .. أنا لا أحب خائنا ..» .

– «حق الوطن عليك أن تضحى ببعض ما تستطيعين بذله ..» .

– «أنا أخجل منه» .

– «لن نستدعيك مرة ثانية» .

– «وأكره أن أراه ..» .

– «أجل ..» .

– «وكنت على وشك اللحاق بالمتطوعات فى المعركة ..» .

– «ما نطلبه منك اليوم واجب وتضحية .. وهو نفسه طلب زيارتك أكثر من مرة ..» .

طأطأت جليلة رأسها وقالت : «اتفقنا ..» .

كان اللقاء فى غرفة صغيرة الأثاث ، وكانت جليلة تجلس شاحبة الوجه ، متوترة الملامح تعبث أناملها بشعرها تارة ، وبحقيبة يدها تارة أخرى . تمنت أن تفر منه وتلعنه وتبصق عليه ، لكن عليها أن تحتمل ، وأخيرا جاء .. لقد بدا نحيفا هزيلا طويلا ، يتطوح كغصن منزوع ذابل الأوراق ، شحيح النضرة ، اختفت سوالفه الطويلة وشعره المرسل ، ولت أناقته ، عيناه تتأرجحان فى حيرة ورعب ، وجرى نحوها كالطفل الملهوف

المذعور مسرعا إلى صدر أمه، ضمها إلى صدره، شعرت باشمئزاز غريب، كادت تتقيأ، هل هذا هو الإنسان الذى أرادت أن تتزوجه فى يوم من الأيام ؟! هل هذا هو فتحى الذى راقصته فى ليالى العمى والضلال ؟! أسلمت له نفسها كجثة، كان استسلامها خاليا من الحيوية أو الاستجابة، ولما هم بتقبيلها صرفت فمها وجسدها عنه، وطافت غمامة حزن بعينيه الغائرتين، وجلس إلى جوارها لاهثا .. شعر أن ملايين الأميال تفصل بينه وبينها، الندم ينهش قلبه، يحرق وجوده وفكره .. لو استطاع أن يتصور ما يجرى الآن، لابتعد عن طريق الخيانة وعاش كما يعيش ملايين الفقراء والمساكين .. إنه اليوم أتعس مخلوق على سطح الأرض .. لم يعد للمال معنى ..

قال لها :

– « انفض عنى الأصدقاء والخلان يا جليلة ..» .

– « لا تحزن ..» .

– « وانفض .. الأهل والأقرباء .. ماذا بقى ؟ » .

– «بقى الأمل فى الله يا فتحى ..» .

– « أجفلت الدنيا عنى، وخسرت الآخرة .. لم يعد لى عزاء ولا رجاء ..» .

– « ما زلت بعيدا عن الله ..» .

– « وكيف أقترب منه وأنا العاصى المنحرف ؟ » .

– « هل سمعت أن يصد أحدا عن بابه ؟ » .

– « وكيف أتقرب إليه ؟ » .

– « بالتوبة .. بالعبادة .. بالصدق ..» .

ثم نظرت إليه في حزن قائلة : «يجب أن تعترف لهم بكل شيء ..» .

أمسك بعنقه وقال : « حبل المشنقة ..» .

قالت :

– « كف عن التفكير في نفسك لحظة .. ثم فكر في وطنك الذي يحارب أشرس معركة .. الناس يموتون الآن على رمال سيناء .. فكن أحد الشهداء .. وأنا واثقة أنهم لن يشنقوك . قل الحقيقة .. ذلك هو الطريق الوحيد لتخدم وطنك ، وتكفر عن ذنبك ، فيستريح بالك ..» .

قال والدموع تترقرق في عينيه : « أما زلت تحبينني ؟ » .

– « أنا لا أكره سوى فعلك ..» .

– « وماذا يبقى من الإنسان بعد تجريده من سلوكه ؟ » .

– «يبقى الجوهر .. يبقى الأمل في بعث جديد ، وسلوك جديد ..» .

ضحك في مرارة وقال : « هذا حب مع وقف التنفيذ ..» .

تنهد في حزن وقال : « أتعدينني بأن تقفي إلى جواري ؟ » .

– « إذا فعلت شيئا تخدم به وطنك ..» .

أمسك بيدها الباردة ، وشد عليها وقال : « أقسم لك بعذابي وحرماني أن أعترف بكل شيء ..» .

- « هذا يسعدنى يا فتحى ..» .

- «من أجلك سأفعل المستحيل .. وعدينى إذا أعدمونى وطلبوا منك أن تتسلمى جثتى فلا ترفضيها ..» .

ثم شهق باكيا ، وتساقطت الدموع على خديها ، أخذت تربت على ظهره النحيل الضامر ، بعد لحظات رفع رأسه ، وجفف عينيه وهو يضحك ويقول :

- « أتبكين من أجلى ؟ ظننتك ستبصقين على وجهى .. أنت إنسانة نبيلة .. كلما نظرت إلى وجهك شعرت بحرمان عتيد .. حرمان لو وزع على العالم كله لدمره ..» .

تململت قليلا ، ثم قالت بنبرة خفيضة :

- « سؤال يعذبنى ويلح على دائما ..» .

- « ما هو يا حبيبتى ؟ » .

- « لماذا سقطت هذه السقطة يا فتحى ؟ » .

نظر إلى مواقع قدميه ، دارت رأسه ، ظل صامتا فترة قصيرة ، ثم عاد يقول بصوت حزين : « هذا خطأ لا يقع فيه طفل متوسط الذكاء .. يومها يا حبيبتى لم أشعر بالسقوط .. لم أكن أفكر فى وطن ولا شرف ولا كرامة .. رأيت نفسى أمام لعبة خطرة .. مغامرة مثيرة .. أو جلسة على مائدة قمار .. إنه أمر كهذا .. كان أمامى المال والنساء والرجال المتأنقون .. وسحب التبغ تعتم المكان .. والكئوس تتقارع .. لم يكن يربطنى بالناس أو بالوطن شىء يذكر .. ولا عرفت الله المعرفة الحقيقية ..

احتمالات الفشل لم تكن واردة .. ما تخيلت قط أن سرنا سينكشف ، كان كل شىء مرسوما بطريقة مطمئنة .. قليلون أولئك الذين يصمدون أمام إغراء المال .. أعترف أننى إنسان ضعيف .. رئيس مجلس الإدارة كان يسرق .. قصص المختلسين تملأ الصحف ، الرشوة تحدث علنا .. أنا واحد من هؤلاء .. نعم خيانتى من نوع بشع لأنها تتعلق بأسرار اقتصادية وعسكرية .. آه .. أشعرونى أنى إنسان ذو قيمة .. كبرت وكبرت .. وظللت أكبر وأتضخم حتى ازداد وزنى .. لم تحتملنى قدماى .. سقطت السقطة الكبرى .. هاهاها ..»

وعندئذ دخل الضابط المكلف بالمراقبة والحراسة ، وأمسك بفتحى الذى أوشك أن يصاب بانهيار عصبى .. واقتادوه خارج الغرفة ، واستدعوا طبيب السجن ليحقنه بمادة مهدئة .. وتبعت جليلة أحد الحراس فى طريقها إلى مكتب المدير ..

– «كانت مهمة قاسية يا سيدى المدير ..» .

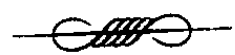
– « أعرف ..» .

– « ولا أريدها أن تتكرر مرة ثانية ..» .

– « آمل ذلك ..» .

– « سأرحل إلى منطقة السويس ، هل لديكم مانع ..» .

– « فى رعاية الله ..» .



١٣

كان نوم أحمد متقطعا قليلا ، أصبح يشعر بشيء من الدوار لكن روحه المعنوية العالية كانت تبعث فى جسده النشاط والحيوية ، وكان هتاف «الله أكبر»- شعار المعركة- يملأ قلبه يقينا ، ويمده بطاقة خارقة تدفعه إلى اقتحام السدود ، واقتلاع الحصون ، وقطع المسافات الشاسعة ، كان أحمد يجد لذة قصوى وهو يجاهد ويقهر العدو ، أدرك أن الجهاد وسيلة راقية للعبادة .. وقال أحمد للرقيب عرفان : «إننا نهب حياتنا لواهب الحياة ..» .

لكزه عرفان وقال : «لا فلسفة ونحن فى أتون المعركة ..» .

- «سوف تمر الأعوام والأعوام .. وسوف نستعيد ذكريات هذه الأيام ونحن فى قمة السعادة» .

أقبل الليل ، لم تهدأ المعركة ، سمع أحمد فى راديو ترانزستور ، أن القوات العربية تخوض أعنف معركة للدبابات ، لم ير لها العالم مثيلا فى الحرب العالمية الثانية ، وأن عددا كبيرا من طائرات العدو قد أسقط بفعل الصواريخ المصرية ، واستسلم عدد كبير من الأسرى ، كما استسلم لواء للعدو بقيادة الضابط عساف ياجورى الذى كان يريد دحر القوات العربية ، والقيام بحركة التفاف حولها ، وثارت التعليقات المتشنجة فى

دوائر العدو السياسية والعسكرية لهذه الهزيمة، وافتضحت أكاذيب العدو وأفلامه السينمائية المزيفة التى أغرق بها العالم ليروج لانتصاراته المزعومة، لقد أراد أن يغطى عاره، ويخفى فظائعه، ولكن .. هيهات .. فالقضية من بدايتها مؤامرة عالمية حاقدة، أرادت أن تقضى على شعب فلسطين، وتضرب العروبة فى صميمها، وتدفع إلى العالم الإسلامى بجرثومة فساد وخراب أطلقوا عليها إسرائيل ..

قال الضابط القائد: «لا بد من إحداث اضطراب فى مؤخرة العدو، وتشتيت جهوده ..».

قال أحمد: «أنتسلل على الأقدام، أم ستقومون بحركة إسقاط بالطيران ..».

قال الضابط: «المسافة طويلة، وإتمام العملية سيرا على الأقدام يستغرق وقتا، وقد لا تستطيع المجموعة العودة قبل الشروق ..».

وقال عرفان: «والإسقاط بالطيران فى هذا الوقت حيث تنشط الغارات الجوية أمر غير مأمون تماما وقد يوجه أنظار العدو إلى الخطة ..».

عندئذ قال الضابط القائد: «ولهذا فإن هناك منطقة فى الشمال آمنة تماما من دوريات العدو، ويمكن اختراقها بالعربات المجهزة .. لكن هناك نقطة هامة: إن تنبه العدو عند إطلاق النار قد يجعله يحاصركم، فتتعرضون لخطر كبير ..

والرأى عندى أن تبثوا الألغام ، وتضعوا القنابل الموقوتة .. ثم تنسحبوا بسرعة ، وعند انسحابكم تستطيعون صب النيران على العدو ، فإذا ما لاحقكم ، تفجرت فيه القنابل الموقوتة والألغام ، وعجز عن ملاحقتكم .. ولا تنسوا أن مهمتكم استطلاعية أيضا .. نريد أن نعرف مدى استعدادات العدو ، والعدد التقريبى لقواته البشرية والآلية فى هذا الجيب الهام .. أيها الأخوة المجاهدون .. تأكدوا أن الله معكم .. فنحن فى معركة جهاد مقدس .. إننا ندافع عن ديننا أمام انحراف الصهيونية وعنصريتها .. وندافع عن حرياتنا أمام تآمر الاستعمار الخبيث .. ونريد أن نصل إلى السلام القائم على العدل ، وما النصر إلا من عند الله ..» .

مضى أحمد ومعه عشرون من الرجال ، كان فى المقدمة يجلس فوق العجلة الأمامية اليمنى للعربة .. ومعه آخر على الجهة اليسرى ، وباقى الرجال فى الخلف أو فى داخل العربة .. واثنان من الجنود يسيرون إلى يمين العربة وآخران على اليسار .. وكانت هذه الحراسات تتم بالتناوب .. قمر رمضان يتجلى فى سماء سينا الرحبة .. الابتسامة الخالدة على وجهه الصخرى .. النور المستعار ينسكب على الرمال .. يتماوج سطورا تروى قصة القرون الغابرة .. كم من المعارك دارت هنا .. ذهب الرجال وبقيت الحقيقة الخالدة فى صفحات التاريخ .. وعلى صدر الرمال .. لمن النصر .. لله الواحد

القهار .. صوت انفجارات يدوى من بعيد .. الطائرات تشق أجواز الفضاء ، وتمزق سكون الليل .. ذكريات تموج فى رءوس الرجال .. بعض الرجال تدهمه إغفاءة عابرة .. ألسنتهم تلهج بالتسبيح والدعاء وببضع آيات من القرآن .. قال أحمد : «من نكون نحن فى هذا الكون الواسع ؟! قطرة فى بحر ..» .

رد الرجل القريب منه : «ذرة فى محيط من الرمال ..» .- « عاد أحمد يقول : «لكنك أشرف مخلوقات الله .. والله يقول ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ..» .

قال زميله : «لكن هناك طغمة من بنى آدم يهدرون كرامتهم وكرامة الآخرين ..» .

ارتفعت العربة وانخفضت فوق هرم رملى صغير متماسك ، وكاد أحمد يسقط لكنه تشبث بمكانه ، وتنهد ثم قال : «لماذا يظلم الإنسان أخاه ؟! » .

- « سؤال قديم ..» .

- « الغريب أن الظالم لا يعترف بظلمه وقد يكون لديه اقتناع حقيقى بأنه مظلوم ..» .

- « نعم .. اليهود يفعلون ذلك يا أحمد » .

- « هم يعرفون جريمتهم .. ويخططون لها » .

توقفت العربة ..

قال عرفان : «لنبدأ العمل .. هنا ملتقى طرق عدة . وآليات

العدو تمر من هنا فى تنقلاتها .. فلنبث الألغام ، ولنوزع القنابل الموقوتة .. تلك هى الأوامر ..» .

قذف أحمد بنفسه من مقدمة العربة ، وهمس : «يجب أن نترك حيزا أو ممرا غير ملغوم لننسحب منه ، وإلا ابتلعنا حقل الموت ..» .

أخفوا العربة وراء ساتر رملى ، وغطوها بالأغطية الصفراء للتمويه ، واندفعوا إلى مهامهم القتالية ، واتفقوا على وقت العودة ، ومكان اللقاء ، ووضع كل واحد منهم يده على المصحف الصغير الذى يسكن جيبه ، وتلوا بضع آيات ، ثم تعانقوا وانصرفوا .. وبعد دقائق هدرت المدافع تصب الموت على العدو وتثير الذعر فى صفوفه .. كانت المفاجأة مذهلة للإسرائيليين ، وظنوا أن قوات هائلة قد أطبقت عليهم تحت جنح الظلام ، فأخذوا يردون بإطلاق مدافعهم بجنون فى كل اتجاه .. وصرخات تنطلق فى جوف الليل .. وهتاف «الله أكبر» يجلجل فى الآفاق .. ثم انفجار هائل فى مخزن للذخيرة .. وعاد الرجال إلى المكان المتفق عليه ، يحملون شهيدا وجريحين ، وصاح عرفان بصوت صارم حزين : «أسرعوا فإن طائرات العدو لا بد آتية لكشفنا وملاحقتنا ..» .

قال جندى : «لكن أحمد لم يأت ..» .

كز عرفان على أسنانه ، ونظر إلى ساعته ، وقال فى نبرات

مرتجفة : « البقاء أكثر من ذلك معناه الفناء لنا جميعا .. انطلقوا إلى قواعدنا ..» .

وصاح جندى آخر : « وأحمد ؟ » .

قال عرفان بحزم : «معنا شهيد وجريحان» .

وأدرك الجميع أن سلامة المجموعة أكبر من سلامة أحمد . ولو كان أحمد نفسه هو قائد العملية لما فعل سوى ذلك .. وانطلق أحد المصابيح الكاشفة فى الأفق ، وتطلع إليه عرفان فى قلق وصاح : « أيها الرجال .. لن نبقى أكثر من ذلك » .

ووثبوا إلى السيارة ، ومرقوا إلى الوراء ، واقتعد حامل الصواريخ الخفيفة مقدمة السيارة ، مصوبا قذائفه فى اتجاه هجوم الطائرات المرتقب .. وبعد نصف ساعة حومت طائرات هليكوبتر .. فأمطرها الجندى بوابل من صواريخه .. كانت القاعدة قد اقتربت .. والليل يوشك على نهايته .. والسيارة تعلو وتهبط .. والغبار يعتم الطريق ، وقال أحد الجرحى : « شربة ماء ..» .

قال عرفان : «لقد أوشكنا أن نعود إلى القاعدة ..» .

– « أكاد أموت من الظمأ ..» .

قرب «الزمزمية» من فم الجريح وصب فيه جرعتين أو ثلاث ..

– « أشكركم أيها الإخوان .. إنى أعانى من آلام شديدة فى كتفى .. لكنى سعيد أن وفقنا الله فى مهمتنا .. خذ ساعتى

وأوراقى .. أيها الصديق الرقيب عرفان .. إذا أنا لقيت الله .. فأخبر أبى أننى مت بين يديك كأسعد ما يكون الإنسان .. قل له لا تحزن فأنت كنت تحدث أبناءك كثيرا عن علو منزلة الشهيد عند الله .. أبى يا رفاقى إمام وخطيب أحد مساجد مدينة طنطا ..» .

قال عرفان بثقة : «إن إصابتك طفيفة ، والدم لم ينزف كثيرا .. وأؤكد لك أنك ستكون على ما يرام بإذن الله ..» .

ونظر عرفان «للنقالة» المعلقة فى سقف السيارة ، وبها جثة الشهيد ، فتدحرجت دمعتان على خده تحت ستار الظلام .. وغمغم عرفان بصوت لا يسمعه أحد : «وأنت أيها الشهيد .. ألا تريد أن تبعث لآل بيتك برسالة ؟» .

وعادت القافلة المنتصرة إلى قاعدتها ..

وتمتم عرفان للقائد المنتظر : «شهيد وجريحان .. ومفقود .. أحمد لم يعد ..» .

قال القائد وقلبه يخفق فى حزن : «والمهمة ؟» .

– «نجحت والحمد لله ..» .

وانطلق صوت جندى يؤذن للفجر ، كان النداء عذبا شجيا مؤثرا ، يفيض طهرا ونقاء ، وذهب عرفان إلى خيمته كى يستعد للصلاة .. كان وحده عندما شهق باكيا ..



١٤

حين وجد عبد الفتاح نفسه فى مدينة السويس مندمجا وسط أفراد المقاومة الشعبية شعر بانتماء أكثر للناس والحياة، المبادىء فى كلمات وسطور، أو فى شعارات، لاقيمة لها ما لم تدخل التجربة، وتنطلق إلى حيز التنفيذ، ويعايشها الناس المؤمنون بها، ورأى عبد الفتاح نفسه بين جموع يتفاوتون فى أعمارهم وإدراكهم واستعداداتهم، وكان قادة المقاومة الشعبية ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير لما لمسوه فيه فهم أثناء المناقشات وتنفيذ بعض المهام العاجلة، كانت خبرته القديمة، وكبر سنه، وصلابة عوده، وسبقه إلى التضحية، كلها مؤهلات جعلت الجميع يحبونه ويكنون كل إعزاز .

كانت الطائرات المعادية تقصف الأحياء المدنية فى مدن القناة، وقد حظيت السويس بنصيب أكبر من هذه الغارات، وكان عدد الجرحى كبيرا سواء من المدنيين أو العسكريين، وكانت الحركة دائبة فى الشوارع، فعندما تنصب القنابل على حي من الأحياء، أو تنهال الصواريخ على موقع من المواقع، يسارع أفراد المقاومة الشعبية إلى مكان المصابين وينقلونهم إلى المستشفيات وأماكن إسعاف الجرحى الأخرى .. ولم يكن عبد الفتاح قانعا بعمله ذلك .. رحم الله أيام زمان أيام كان

ضمن الفدائيين فى أرض فلسطين منذ خمسة وعشرين عاما .. إن آثار المعارك ما زالت مسطورة على جسده .. ورحم الله أيام القتال فى القنال .. كان يتسلل إلى معسكرات الإنجليز فى خفة ، ويدمر مخازن الذخيرة ، أو يستولى على بعض قطع السلاح ، ويربك خطوط إمداداتهم .. كان شابا متحمسا يتدفق حيوية وحماسة .. لم تكن خطواته محسوبة بهذه الدقة التى يلتزمها اليوم .. هنا فى هذه المنطقة كانت له جولات وجولات .. كان مع العمال وشباب الجامعات .. وكانت له صلات وثيقة مع سكان هذه البلاد .. فى التل الكبير وأبى حماد وفى المناطق القريبة من الغردقة والدفرسوار .. وكان يختفى فى أعواد القصب ، أو يخفى جسده فى الماء فى الشتاء القارس .. إنه اليوم يؤدى عملا ، لكن شتان بين أمس واليوم ، كان قديما يسير فى المقدمة ، ويقذف بنفسه فى منعطفات الموت غير آبه لما يكتنف حياته أو يتهددها من خطورة .. وكان سعيدا أن يجد نفسه وسط رجال من الشعب ومن ضباط الجيش المخلصين .. كان عددهم قليلا لكنهم أزعجوا العدو أيما إزعاج .. وأفاق عبد الفتاح من أحلامه على صوت صفارات الإنذار .. إن الغارة هذه المرة سقطت على إحدى المستشفيات .. وتحت أنقاض جانب من المستشفى كانت جثث الضحايا والحكيمات والممرضين والجرحى .. كان المشهد يمثل عناقا أبديا يصرخ بالاحتجاج على الخيانة والغدر الصهيونى .. شعر عبد الفتاح أنه يكره الصهيونية أكثر من أى وقت مضى .. آمن أنها وباء خبيث

لا علاج لها إلا بالبتر .. دمعت عيناه .. كانت دموعه تنفيسا عن زلزال يتفجر داخله .. إن يده ترتجف لم يعد عبد الفتاح بقانع بذلك العمل الهين .. نقل الجرحى وإسعافهم .. نجدة المحتاجين والمهاجرين من الأطفال والنساء ، أو البحث تحت الأنقاض عن بقايا حياة أو جثث .. إنه يريد أن يحمل السلاح ويثأر لأحزان الضحايا والمساكين ..

– « لماذا تقف هكذا .. تحرك » .

والتفت عبد الفتاح خلفه عندما سمع ذلك الصوت الذى يعرفه .. والتقت نظراته بنظراتها .. هتف : « جليلة ؟! » .

– « عم عبد الفتاح » .

– « إننى سعيدة برؤياك » .

تفحصها فى حنان وقال : « لشد ما تغيرت !! » .

حاولت أن تسوى شعرها تحت القبعة التى تلبسها وهى تقول : « إننى لم أنم منذ ليلتين » .

كان الشحوب باديا عليها ، ونظراتها تنم عن الإرهاق والألم ، كانت جليلة تخوض معتركا نفسيا عنيفا . التجربة مريرة ، فتحى وخديعتها فيه ، ذهابها إلى لبنان بغرض الفسحة ، الخونة يتخذونها ستارا لمطامعهم الدنيئة .. لولا لطف الله لنشرت صورتها فى الصحف . وتناولتها الألسن فى كل مكان ، وتلوثت سمعتها . إن حادث فتحى كان كالصفعة القوية المباغتة التى أيقظتها من غفلتها ..

قال عم عبد الفتاح :

- « فى البداية لا يستطيع الإنسان أن ينام وسط هذه الضجة القاتلة .. إن الإنفجارات والدماء والأشلاء وصرخات الاستغاثة ونظرات المحتضرين، كل هذه الأشياء تبعث على الأسى والأسف، وتجعل النوم يهرب .. لكن بعد مرور بضعة أيام يا ابنتى، يتعود الإنسان على هذه المشاهد، ويألفها، وتصبح أمرا عاديا .. ثم يشعر الإنسان- كبشر محدود الطاقة بالتعب .. ويتثاءب .. ويتمطى .. وينام وسط هذا الضجيج الهائل ..» .

قالت جليلة :

- « لم أكن أتصور أن أعيش هذه التجربة » .

قال عم عبد الفتاح : « تجربة العمر .. لقد عانينا فى التاريخ تجارب المغول والتتار والصليبيين .. ثم عانينا تجارب الاستعمار الحديث .. واليوم نواجه تحديا صهيونيا عنيفا .. التجارب السابقة كلها أضاءت بالنصر والحرية .. كان هنا دائما رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ..» .

وفجأة نظر عم عبد الفتاح إلى جليلة .. وجدها قد أسندت رأسها على المقعد الذى تجلس عليه .. وراحت فى سبات عميق .. وتراخت تقبضات وجهها، وأغمضت عينيها .. وانبعث صوت تنفسها هادئا رتيبا ..

غمغم عم عبد الفتاح : «مسكينة !! لكن التجربة سوف تنضجها وتخلق منها إنسانة جديدة .. إن معدنها طيب» .

١٥

لا يعرف أحمد بالضبط ما جرى له، كل ما يتذكره أنه أدى مهمته على الوجه الأكمل، وأن آخر شىء فعله هو تفجير مخزن الذخيرة الرئيسى للعدو فى تلك المنطقة .. ولم يعد يذكر شيئا .. تلفت أحمد حوله فوجد السكون يلف المكان، كان الظلام لم يزل مطبقا .. وحاول أحمد جاهدا أن يفتح عينيه .. «يا إلهى إن رأسى يؤلمنى» .. ودقق النظر جيدا .. مستحيل .. ماذا يرى؟ عددا من الجنود الإسرائيليين يحيطون به، وفوهات بنادقهم مصوبة إليه .. لقد وضح كل شىء .. إنه الآن أسير .. ربما يكون فى حلم من الأحلام .. حاول أن يحرك يده فجاء صوت بالعربية مشوب بلكنة أجنبية : «لا تتحرك وإلا أطلقت عليك الرصاص».

وانصب ضوء صغير على وجهه، لم يعد يرى أحدا، تمنى أن ينام .. إنه يشعر بوهن شديد .. أحمد يعرف الكثير من اللغة العبرية .. من تعلم لغة قوم أمن مكرهم .. ولذا سمع أحد الصهاينة يقول : «لقد توقف النزيف وحده .. إن الضمادات البسيطة قد أنقذته من الموت ..».

ورد صوت آخر بالعبرية : «هذه الحيوانات يجب أن تترك للموت ..».

- « حياته لا قيمة لها ، لكننا نريد أن نعرف ماذا وراءهم .. هذا هو الأهم ..» .

وصاح الإسرائيلى ذو اللكنة الأجنبية بلغة عربية مفهومة : « اجلس .. ما اسمك ؟ » .

- « أحمد .. عبد الفتاح ..» .

- « ما هى رتبتك ؟ » .

- « مجاهد فى سبيل الله .. كلنا مجاهدون سواء الضباط أو الجنود .. جميع الرتب تحمل شرف الجهاد ..» .

قال الإسرائيلى فى حقد : « تعلم أننى أستطيع أن أنهى حياتك برصاصة » .

قال أحمد : « لو كنت أعلم أن الموت بيديك لما حاربت .. الأعمار بيد الله » .

- « لم تزل تهذى من أثر الصدمة » .

عندما جلس أحمد شعر بدوار ظاهر ، استند إلى يمينه ، كان جالسا على الرمال ، هتف : « ماذا تريدون بالضبط ؟ » .

- « من أى جيش أنت ؟ » .

- « الثانى ..» .

- « وما مهمتكم ؟ » .

- « تحرير أرضنا ، وإعادة الحق والسلام طبقا لما يأمرنا به ديننا ..» .

وأخذ الضابط الإسرائيلى يسأل أحمد عن قواعد الصواريخ

فى الضفة الشرقية والغربية ، وعن وسائل العبور التى استطاعوا أن يعبروا بها قناة السويس ، وعن الخطة التى تمكنوا بها من السيطرة على خط بارليف والتموين .. عن أشياء كثيرة .. وكان أحمد فى كل مرة يجيب بجملة صغيرة « لا أعرف » .. عندئذ ركله الضابط الإسرائيلى فى عنف فصرخ أحمد عبد الفتاح فيه بحدة وقال : « أيها الهمجى .. ألا تعرف كيف تعامل أسيرا جريحا ؟ » .

قهقه الإسرائيلى وقال فى سخرية : «لست من أنصار الإبقاء على حياة الأسرى ، لكن رئاستى تريد الاستفادة من معلوماتكم العسكرية .. أنا لا أكترث للصليب الأحمر الدولى ، ولا لمواثيق هيئة الأمم ، ولا للعواطف الإنسانية بين البشر .. لو آمنا بذلك لما قامت دولتنا ..» .

ثم انحنى صوب أحمد واقترب منه بوجهه الثائر المحتقن وصاح : « أيها الأحمق ، نحن لا نريد إسرائيل وحدها ، ولا نطمع فى العالم العربى وحده .. ولكننا نريد القضاء على الإسلام .. والسيطرة على العالم .. ليس هذا حلما ..» .

قال أحمد بصوت ندى واثق : « ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ..» .

عاد الإسرائيلى يصرخ : « ماذا تقول ؟ » .

قال أحمد ضاحكا : «من أنت؟ سوبر مان؟ إن الحقد والغرور والتكنولوجيا لا تقيم حضارة أصيلة .. انظر .. هذه هى حصونكم وطوابيركم .. أنتم تنهارون وتموتون.. وتبكون..

وتستغيثون .. وكان رفاقك بالأمس يقبلون حذائى .. قوم هذا شأنهم لا يمكن أن يسودوا العالم .. وليس فى استطاعتهم أن يصمدوا على هذه البقعة من الأرض ..» .

وأزت طائرة فى الجو .. ارتمى الإسرائيليون على الرمال وهم يصيحون « طائرات مصرية » وعاد الهدوء من جديد ..

قال أحمد : « سماؤنا رحبة .. وأرضنا تمتد وراء الأفق .. ونحن وأجيالنا نقف لكل معتد بالمرصاد .. والفصل الأخير أنتم تعرفونه فى كل مرة ..» .

قال الإسرائيلى فى دهاء : « أنت جامعى ؟ » .

– « نعم .. آداب قسم فلسفة ..» .

– «لكن بلادكم تحكم بالحديد والنار .. وهذا يشينك كمثقف » .

ابتسم أحمد وقال : «لن أحاول تفنيد ادعاءاتك .. لكنى أقول لك .. أن الشعوب المقهورة لا يمكن أن يتسابق جنودها إلى الموت مثلما ترى الآن .. إن وطنى اليوم ينعم بالحرية .. ويضحى أبناؤه عن طيب خاطر .. من المحيط إلى الخليج .. عندما ترى أيها الضابط الرجال يموتون سعداء ، ويتسابقون إلى التضحية فاعلم أنهم أبناء عقيدة عظيمة .. وفى حمى وطن عظيم ..» .

أمسك الإسرائيلى بخناق أحمد ، وجذبه إلى أعلى ، يعاونه فى

ذلك باقى الجنود .. وركله مرة أخرى .. ثم صاح : «سنعلمك الأدب .. خذوه» .

وجد أحمد نفسه فى عربة «جيب» صغيرة، وحوله الحراس، وانطلقت العربة المغلقة إلى المجهول، وتحسس أحمد رأسه، كانت الضمادة مبللة، وشعر بآلام فى مؤخرة رأسه .. وكانت ضربات قلبه تتسارع .. لم يكن خائفا .. كانت التجربة الجديدة مثيرة .. إنه لأول مرة يلتقى مع الإسرائيليين فى نقاش يواجههم فى معركة فكرية .. كان بالأمس يعبر إليهم ويجادلهم بالرصاص، ثم تنتهى المعركة فى صمت .. أما اليوم فالمعركة من نوع آخر .. وأحمد يشعر بأنه مقيد مشدود إلى الأرض .. لم يكن يريد أن يلقى به فى الأسر المعركة لم تزل طويلة .. كان يريد أن يحارب ويحارب ولا يكف عن الحركة، أما الأسر فهو شىء ثقيل على نفسه .. «آه .. أين أنت الآن يا أبى ؟! وماذا ستقول عندما تعلم أننى لم أعد ؟ وأنت يا أمى الحبيبة المريضة !! مات سلامة فبكيتم كثيرا، لكنكم استودعتموه عند الله .. لكن سلامة لم يمت .. الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .. وأنت أيها الأخ الصديق عرفان، لا شك أنك حزنت حزنا شديدا» .

وشعر أحمد بشىء من الخجل وهو يتذكر «جليلة» .. «يبدو أنها كانت على حق حينما اتخذت التجنيد ذريعة لعدم البت فى أمر الزواج .. إنها مسكينة .. خدعها فتحى، ويوم أن سقط هالتها الصدمة .. كانت صدمة قاسية محزنة .. لكنها كانت

ضرورية لكى تفيق من هواجسها .. كنت واثقا أنها ستفيق فى يوم من الأيام ، لكنى خفت ألا تفيق إلا بعد فوات الأوان ، الحمد لله أفاقت قبل أن تتورط .. كنت أحب الخير لها ، لكن لماذا أجرى بفكرى صوب تلك الأشياء .. العربة تتجه إلى الشمال على ما يبدو .. وسوف يقذفون بى بعد ساعات إلى معسكر للأسرى ، ويعلم الله ماذا يفعلون بى ، إنهم قوم بلا ضمير ، الحقد يعميهم عن إدراك معنى العلاقات الإنسانية بين البشر ، لأنهم لم يحبوا أحدا من البشر حبا حقيقيا فى يوم من الأيام .. الفئة الوحيدة فى العالم التى أغلقت الأبواب على نفسها منذ التاريخ القديم ، وانطوت تجر همومها ومطامعها ، وتدبر وتتآمر ، وتقدم القرابين لمشاعر الحقد والكراهية والجشع لغيرهم من الأجناس والأديان ، وفى كل مرة ينفثون سمومهم كانوا يقعون تحت طائلة العقاب .. هم الجناة .. لكنهم كانوا دائما يستغيثون ، ويسجلون الأساطير عن اضطهاد الناس لهم ..» .

أشرق الصباح والعربة تسير وسط معسكرات عديدة تكتظ بالحركة الدائبة ، والآليات تمضى فى كل اتجاه ، لم تستطع الحدود الآمنة التى توهمتها الصهيونية أن تحميهم من وثبة الأحرار ، ومن قبضة المظلومين أصحاب الحقوق المشروعة ..

وتنبه الحراس بعد أن أشرقت الشمس ، فأسرع أحدهم ، وأحضر منديلا أسود وربط به عينى الأسير أحمد حتى لا يرى شيئا .. لكنه ألقى برأسه للخلف وغمغم : «أستطيع أن أنام الآن ..» .

لكزه الجندى الإسرائيلى فى غيظ وقال : «وهل ينام الخائف ؟» .

– « مم أخاف » .

– « أنت ذاهب إلى الجحيم .. إلى السجن ..» .

– « وكيف يخاف عبد أسلم وجهه لله ؟ » .

– « أى إله ؟! » .

– « إله موسى وعيسى ومحمد » .

– « أتؤمنون بموسى ؟ » .

– « لا يكمل إيماننا بالله إلا إذا آمنا بالنبوات كلها ، وبالكتب السماوية الصحيحة كلها ..» .

– « لكن ليس لكم الحق فى الإيمان بموسى » .

قهقه أحمد وقال : «باب الله لا يملكه أحد .. والأنبياء ليسوا دعاة عنصرية .. أنتم لا ترون الحياة والرسالات إلا من خلال مناظيركم السوداء ، وآفاقكم الضيقة ..» .

هتف الإسرائيلى فى ضيق : «لن ينفعك هذا الهراء ..» .

وانبعثت أنفاس أحمد رتيبة هادئة .

عاد الإسرائيلى يلكزه ثانية ويقول : « ألا تشرب ؟ » .

قال أحمد : « أنا صائم ..» .

– « صائم ؟ » .

- «رمضان حبيبى .. ولن نخوض «بدر» الجديدة إلا صائمين ..» .

- «ماذا تقصد ببدر الجديدة ..» .

- «معركة الإسلام الأولى .. الفئة القليلة التى غلبت فئة كثيرة بإذن الله ..» .

قال الإسرائيلى فى غيظ :

- « هل أنت تخصص تاريخ أم فلسفة ؟ » .

لم يتكلم أحمد ، كان قد أخذته سنة من النوم ..

وبعد ساعة ، هزه الإسرائيليون وقال أحدهم : « هنا السجن .. وستخلع العصابة السوداء فى الداخل .. مكتوب على الباب هنا بالعبرية والعربية : أيها الداخلون .. ودعوا آمالكم ..» .

وجروه من العربة .. كان يمضى مرهقا من أثر التعب والسهر والجراح وغمغم : « آه لن أودع آمالى كما يزعمون .. آمال المؤمن تحلق فوق السحاب وتنتشر فى الآفاق ، تحملها روحه عبر الجهات ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل .. روح المؤمن خالدة لا تموت .. ورسالة المؤمن ، حفظ الله لها البقاء ..» .

وصاح صوت :

- «قف ..» .

توقف أحمد وهو معصوب العينين ..

وتحسسوا جيوبه ، وفتشوه تفتيشا دقيقا ، حتى ضمادة رأسه فكوها ، ثم أعادوا ربطها .. وصاح سجان : « ادخل » .

ووضع أحمد يده على جيبه وهتف فى ضيق :

– « أين مصحفى ؟ » .

– « ممنوع ..» .

– « هل تمنعون العبادة ..» .

– « الأوامر أن نجردكم من أى سلاح ..» .

– «لكن المصحف ..» .

فقاطعه السجان قائلا : « المصحف سلاح ..» .

– « هذا انتهاك لحقوق الإنسان » .

ودفعه الحارس دفعة شديدة إلى الداخل ودمعت عينا أحمد .. شعر أنهم انتزعوا منه أغلى ما يملك ..

١٦

انكشفت أكاذيب القيادات الإسرائيلية وأجهزتها الإعلامية وأصبحت الحقيقة واضحة لا غموض فيها ، ألا وهى انهيار خط بارليف ، وتقهقر الخطوط الدفاعية للعدو ، تحت ضغط وتقدم الجيش العربى ، وثارت تساؤلات عدة عن تحليل وتفسير نتائج الرحب السابقة عام ١٩٦٧، وعاد المفكرون والمؤرخون يعيدون النظر فى آراء كثيرة فى مجالات الحرب والسياسة والحضارة ، وتألقت مرة أخرى الشعارات التى تقول : مصر مقبرة الغزاة ، ولينصرن الله من ينصره، إن معركة الحرية لا يكسبها إلا أحرار .. وكان النجاح فى حرب البترول ساحقا ومذهلا .. فقد اضطربت أوساط المال والصناعة والاقتصاد فى أوروبا وأمريكا ، وفى اليابان وأفريقيا .. كانت الضربة البترولية قاسية مما جعل الجميع يفكرون فى القضية من جديد على ضوء احتمالات الضياع والخراب التى ستحيق بهم بسبب تعنت إسرائيل ، بعد أن فشلت الدوافع الإنسانية ومشاعر العدل والسلام فى دفعهم للتفكير فى قضية الشعب العربى والفلسطينى تفسيرا موضوعيا سليما .. إن العالم يبدو أحيانا مجردا من العواطف الإنسانية تحت ضغط الخوف أو المصلحة أو أجواء الأكاذيب الضاغطة ..

وأخذت الدول- الواحدة تلو الأخرى- تقطع علاقتها بإسرائيل، وتطالبها بالجلاء عن الأراضى العربية المحتلة، والتسليم بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين، والالتزام بالقوانين والأعراف الدولية ..

وهكذا منى العدو بخسائر فادحة، لا فى الساحة العسكرية وحدها، بل فى عالم السياسة والتجارة، وعلى مستوى الفكر العالمى ..

قال جندى إسرائيلى جريح : «إن تدمير الحصون، والانسحاب بضعة كيلو مترات، وموت عدد من الرجال، كلها ممكن قبولها، أما أن يقال عنا إننا بلا تميز حضارى، أو نفقد معنى الشرعية فى الأعمال، أو نخسر تأييد رجال الفن والفكر، فهذا كله كارثة لا تحتمل .. وعلى هذا القياس أستطيع أن أعترف بانتصار العرب حتى الآن ..» .

وحاول كبار رجال السياسة الاجتماع فى مجلس الأمن، ومناقشة وقف إطلاق النار، والعودة إلى حدود ما قبل الاشتباك، ولقد تبنت أمريكا فى البداية هذه الفكرة الخرافية .. كان واضحا أن هذا الكلام هراء فى هراء .. فالجندى المصرى الذى يتصدى لآليات العدو الحديثة، ويلف الألغام حول جسده، ويفجرها فى قلب تحصينات العدو، ويضحى بنفسه .. هذا الجندى هو الذى يملى الحل .. وهو الذى يضع الشروط لوقف إطلاق النار ..

قال أسير إسرائيلى لحارسه المصرى : «لقد منينا بهزيمة لم تخطر لنا على بال ، لم نكن نتصور أنكم قادرون على دحرنا ، واجتياز خطوطنا .. إن قيادتنا خدعتنا ، لكننى واثق أن أمريكا لن تتركنا .. لسنا وحدنا فى الحرب ، لو كنا وحدنا لهزمنا منذ زمن بعيد .. أمريكا ستدخل المعركة .. لابد أن تدخلها وإلا طوانا الفناء .. ولن يجرؤ رئيس أمريكى على تركنا وحدنا فى الميدان .. الجسور الطائرة تنقل السلاح الحديث الآن من أمريكا إلى سيناء مباشرة .. أنتم لا تستطيعون محاربة أمريكا ونحن لا نستطيع أن نحارب بدون أمريكا ..» .

قال حارسه المصرى : «نستطيع أن نحارب أمريكا ..» .

– «ذلك غرور ..» .

– «المظلوم يحارب لأنه مظلوم ، مهما عظمت قوة ظالمه .. والمظلوم يحارب لا ليحقق النصر ويحتل أرض عدوه .. بل ليؤكد حقه ، وليثبت أنه حى وإنسان .. لن نحتل أمريكا .. ولكن سننغص حياة جنودها هنا إن جاءوا .. سنموت ويموتون .. سيأتى يوم يتساءلون فيه بينهم وبين أنفسهم لماذا نقتل الأبرياء .. وقد يوجهون رصاصهم لصدور من زجوا بهم فى الحرب .. أو لصدور الصهيونية الطامعة .. لقد جاهد محمد صلى الله عليه وسلم بحفنة من الرجال وفى سنوات قليلة دان له

العالم .. المهم أن تؤمن بالله، وتؤمن بما تفعل .. لسنا مغرورين، ولكننا نرفض الذل، ونكره العدوان ..» .

كانت جليلة تضمد الجرحى، وتنتقل من مكان إلى مكان فى عربة الإسعاف، وكانت القذائف تنهال على السويس صباح مساء . وتذكرت أن عم عبد الفتاح لم يعد منذ ثلاثة أيام .. ترى أين ذهب ؟ ولماذا لم يعد ؟ لقد علمت أن العدو يضرب المدنيين بلا رحمة، كما علمت أن محاولات لإسقاط جنود العدو على الضفة الغربية ما زالت مستمرة، كما سمعت أن الإسرائيليين يحاولون فتح ثغرة للالتفاف بها حول مؤخرة الجيش الثالث .. بل إن العدو يحاول جاهدا بعد نكسته أن يفعل أى عمل- ولو كان جنونيا- ليثبت به قوته، ويدارى فضيحته، مهما كان الثمن .. إن العالم بدأ يضيق بالعناد الإسرائيلى وخاصة بعد أن أعلن قائد المعركة الرئيس المصرى موافقته على وقف إطلاق النار، استجابة للرأى العالمى بشرط انسحاب إسرائيل بالكامل، والتسليم بحقوق الشعب الفلسطينى، والنزول على رأى المنظمات الدولية .. إن المجتمع الإسرائيلى يغلى، والحسرة تلف الجميع لكثرة عدد الطائرات التى أسقطها العرب فى الساحة المصرية أو السورية، ولكثرة عدد الضحايا والأسرى من اليهود .. وبدأ البعض ينظم المظاهرات ضد الحكومة الإسرائيلية وضد وزير الحرب موشيه ديان ..

الشعور العام فى العالم العربى يتأجج ..

أمريكا تعطي اليهود بيد ..

وتصافح العرب وتستعطفهم باليد الأخرى ..

إنها تساند ظهر العدو ، وفى نفس الوقت تجاهد من أجل وقف إطلاق النار ..

– « جئت إليك ..» .

قالها عم عبد الفتاح ، فالتفتت إليه « جليلة » فى فرح وقالت : « كنت قلقة عليك ..» .

وقاسته بنظارتها وقالت : « ما هذا ؟ أتحمل مدفعا ؟ يا إلهى إن الدم ينزف من يدك ..» .

كان شاحبا ، قدمت له مقعدا فجلس ، وهو يقول : « لا تحتاج إلا لضماد بسيط .. لقد دخلت الرصاصة فى عضلة العضد الأيسر ثم خرجت ..» .

أمسكت بيده ، تفحصت الجرح ، وهى تنظفه ، ووضعت بعض المطهرات ، وأعادت لفه بالضماد ، وحقنته بالمصل المضاد « للتتانوس » ثم أخذته للطبيب المناوب .

كانت الساعة الواحدة بعد نصف الليل .. كان الطبيب يكاد يترنح .. قال :

– « لم أنم منذ ثلاث ليال ..» .

وابتسم الطبيب فى سعادة وقال : « تمنيت أن أرى ولدى

الوحيد الذى تركته مع أمه فى القاهرة .. أحسست بظمأ حارق لقبلة منه .. لن تصدقونى .. كنت أجرى إحدى الجراحات الكبرى لجندى شجاع .. وما أن انتهيت من العملية حتى وجدت ولدى « منصور » يمسك بيدى ويقول : « أنا جيت أهه يا بابا ..» لم أصدق عينى .. لمست شعره ووجهه بيدى ، أحطته بذراعى .. ضممته إلى صدرى .. وقبلته أعظم قبلة فى حياتى .. كانت يداه الصغيرتان تحيطان بعنقى .. ثم أوقفته إلى جوارى لكى أكمل خلع ملابسى وأغسل وجهى .. ثم بحثت عنه .. ولدى .. ولدى .. منصور .. منصور .. أين ذهب ؟ لا أدرى . أنا متأكد مما أقول .. وما ذلك على الله بعزيز ، شعرت أن ظمأى قد خف .. وارتاحت نفسى .. ماذا وراءك يا آنسة جليلة ؟ » .

– « هذا أبى !! » .

– « هذا عم عبد الفتاح ، رأيته معك أكثر من عشر مرات .. أتصدقنى يا عم عبد الفتاح ؟ ماذا بك ؟ » .

تفحص الجرح ، وأحضر بعض الأدوات البسيطة ثم قال : « يحتاج لبضع غرز .. احقنيه أيضا بمضاد حيوى مخافة تلوث الجرح .. وليسترح هنا الليلة ..» .

وشهق عبد الفتاح باكيا ..

قال الطبيب :

– « ماذا بك ؟ أتخاف من الجرح ؟ إنه بسيط » .

جفف عبد الفتاح دمعه ثم قال : « رأيت رجلا فى التسعين من

عمره تسحقه يد الغدر .. آلمنى مشهد لحيته البيضاء ، وعيناه الضعيفتان .. كان ينظر فى دهشة ولا يعرف ماذا يجرى على وجه الدقة .. لقد تسللت بعض الدبابات من ثغرة الدفرسوار ..» .

قالت جليلة : « أنا أعرفك ، لم تكن قانعا بدورك فى الدفاع المدنى .. كنت تريد أن تسبق الشباب إلى الموت ..» .

ثم التفت إلى جليلة مرة أخرى وقال :

– « على فكرة ، لقد رأيت أخاك عبد السلام ..» .

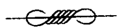
– « أين ؟ » .

– « هو بخير » .

– « لماذا لا يأتى إلى هنا ..» .

– « إنه قناص ماهر .. يتعلم كل شىء بسرعة ..» .

وبقيت السويس صامدة ، لم تسقط كما زعم العدو .. العدو الذى يضرب عرض الحائط باتفاق وقف إطلاق النار ، ويريد أن يكسب أرضا ليغطى عاره ..



١٧

مر أحمد بتجارب عنيفة فى معسكر الأسرى، كانوا يضربونه ضربا مبرحا على قدميه بالسياط، ويغرزون الدبابيس فى جسده، وينتزعون الشعر من شاربه، ويهددونه بجعله ضمن حيوانات التجارب التى يستخدمها الأطباء الإسرائيليون فى مجالات العقاقير ومفعولها، والجراحات التجريبية، وعدوى الفيروسات والكيماويات الحربية، وجربوا معه سلاح التجويع .. لكن الشىء الذى آلمه أكثر تلك الحرب النفسية التى أتقنوا أسلوبها ..

كانوا يحضرون معهم المذياع، ويفتحونه ليسمعوا نشرة الأخبار من القاهرة أو دمشق أو غيرها من عواصم الدول العربية، ثم يعلن المذياع أخبارا مزعجة .. إن أحمد يكاد يجن، كيف يصدق أن الجيش العظيم الذى هو واحد من أفراده قد انسحب عائدا إلى الضفة الغربية؟ مستحيل .. هذه أكاذيب .. وأخذ الإسرائيليون يغنون ويمرحون، والحراس يتبادلون كئوس النصر بطريقة لا تدع مجالا للشك فى الأخبار التى يروجون لها ويذيعونها من آن لآخر ..

قال أحد الحراس: «يا سيد أحمد، لقد منيتم بهزيمة ساحقة ألعن من هزيمة ١٩٦٧».

قال أحمد فى عناد : «نحن لم نهزم ..» .

– « والراديو .. وصوت مذيعكم فى القاهرة » .

– «لا أصدق .. أعطونى الراديو كى أتفحصه بنفسى .. لا شك أن هناك خدعة ، أنا أعرف الرجال الذين كانوا يحاربون معى ..» .

صفعه الحارس على وجهه وانصرف ..

كان أحمد يريد أن يحصل على مصحف بأى ثمن لقد انتهت موجة التحقيقات والتعذيب ، وأصبح الوقت طويلا مملا ، إنه يقضى وقته هو ورفاقه فى الصلاة أو فى الحديث .. لكن هذا لا يكفى ..

وفى أحد الأيام لاحظ أحمد أن حراس المعسكر قد نشطوا فى تنسيقه وتنظيفه ، كما أحضروا بعض الزهور والصحف الأجنبية وهى الصحف الإسرائيلية المكتوبة باللغة العبرية أو اللغات الأوروبية الأخرى .. ووزعوا على الأسرى بعض الملابس النظيفة ، وساقوهم فردا فردا لكى يحلقوا لهم شعورهم ، كما أعطوا لكل واحد منهم ورقة صغيرة وقلما ليكتبوا لذويهم .. ما هذا الانقلاب الغريب ؟

وأخيرا جاء مندوبون عن هذا الصليب الأحمر الدولى .. إذن هذا هو السبب ..

قال أحمد لمندوب الصليب الأحمر :

– « إننا نريد المصاحف .. إن ما ترونه الآن صورة عكسية

لما يجرى هنا .. إنهم يعاملوننا كحيوانات تجارب .. ويسجلون نبضنا وضغطنا وحرارتنا ..يخضعوننا لدراسات يأنف منها الضمير العالمى .. لا تنصرفوا قبل أن تسلمونا المصاحف ..» .

كان يوما سعيدا ذلك اليوم الذى تسلموا فيه كتاب الله .. كان أحمد الصائم يتشرب كلماته فى سعادة ، وكأنما هذه الكلمات قد أنزلت له خاصة .. أشرق قلبه باليقين والسعادة .. شعر بأنس وصحبة لا مثيل لهما .. وجلس الرجال يقرءون فى المصاحف بصوت عال .. كمظاهرة تصفع العدو العاجز على وجهه .. تصفع تعنته وعنصريته المقيتة وكبرياءه .

كان الحراس الإسرائيليون يكزون على أسنانهم فى غيظ ، وكانوا يضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة فى عصبية .

كانت جراح أحمد قد تماثلت للشفاء ، كما أصبح أكثر رضى وهدوءًا بعد مرور الأيام الأولى الصعبة التى قضاها فى الأسر ، ولقد سر أحمد بوجود زميل له فى الأسر وهو الضابط «سالم محمود» خريج الكلية الفنية العسكرية ، كان سالم محمود ميالا للصمت والتأمل ، كثير الشرود ، وكان ضغط العدو شديدا بالنسبة له لإلمامه ببعض التجهيزات العلمية الحديثة ، لكنه اعتصم بالصمت ورفض أن يجيب على أى سؤال حتى كادوا يقتلونه لولا أملهم فى أن يستفيدوا منه .. وذات مساء مال سالم على أذن أحمد هامسا وقال : « أنا حزين ..» .

قال أحمد فى اهتمام : «لماذا ؟» .

- «لم أعرف رجالى تمام المعرفة إلا فى الحرب ..» .

- «وماذا فى ذلك .. إن الشدائد هى التى تظهر معادن الرجال ..» .

- «أحمد .. افهمنى .. كنت شديدا معهم ، وكنت أعتبر الهنات أو الأخطاء الصغيرة كبائر لا تغتفر ، وكنت أرمى بعضهم بالطيش والعبث فى بعض الأحيان .. ثم جاءت المعركة .. رأيت شيئا عجيبا .. كنا فى الجيش الثالث .. واندفعنا إلى العمق لنضرب تجمعات العدو .. وحاصرتنا قواته .. كانت ساعات رهيبة .. لقد حاولت جهدى إنقاذ الأبطال الذين أظهروا تضحية لا مثيل لها .. وتمكنا من سحب الجزء الأكبر .. وبقينا .. أربعة رجال وأنا .. عشنا خمسة أيام محاصرين، كان الرجال يتقاسمون قرص البسكويت .. وكان كل واحد يتنازل عن نصيبه من الماء لأخيه كما كان يفعل صحابة الرسول .. تصور .. لم أكن أعتقد أن هذا ممكن الحدوث فى زماننا .. وتذكرت أن هؤلاء الصامدين كنت أكتب عنهم تقارير سرية متوسطة أو أقل من المتوسط قبل المعركة .. أتعرف ما هو الشىء الذى يعذبنى الآن ؟ لا تسخر منى يا أحمد ، إن كل ما أريده الآن هو أن أحصل على هذه التقارير القديمة وأمزقها إربا إربا .. ثم أحرقها فى النار .. وبعد ذلك أمسك قلمى وأكتب من جديد .. بسطور من ماء عينى .. قصة الأبطال المؤمنين الشرفاء الذين يفخر بهم تاريخنا كله .. القديم منه والحديث .. هذا ما يعذبنى ..» .

ربت أحمد على كتفه فى حنان : « هذه الكلمات تغفر لك قسوتك .. وهى فى الواقع ليست قسوة .. كنت تريد لهم الكمال ، وتقيسهم بالمقاييس المثالية ..» .

وتدحرجت دموع صامتة على وجه « سالم محمود » النحيل المؤمن وهو يقول : « كانوا يتسابقون إلى الموت .. لقد استشهد من رجالى خمسة .. ماتوا دون أن يعرفهم الناس ..مجرد أسماء ساكنة فى صفحات التاريخ ..» .

قال أحمد : « هل نسيت أنهم مع النبيين والصديقين والشهداء ..» .

غمغم سالم : « هذا هو عزائى .. آمنت بالله ..» .

وتوارت الشمس فى الأفق الغربى ، وأظلمت غرفة الأسرى .

وقال أسير : « هل تعلمون أنها ليلة العيد ..» .

قال أحمد : « كل عام وأنتم طيبون ..» .

– « فى العيد كنت أذهب إلى أبناء أختى اليتامى .. ماتت عند ولادتها آخر مرة وتركت أطفالها الخمس يعولهم أبوهم .. فى العيد أصلى الفجر وأذهب إليهم ..» .

أراد أحمد أن يحول دفة الحديث فقال : « نحن نعيش أعظم أيامنا ..» .

وسمع أحمد الحراس يتكلمون ..

قال أحمد : « انصتوا أيها الإخوان حتى نسمع ما يقولون بالعبرية ..» .

وفهم أحمد من كلامهم أن القائد الإسرائيلى شارون ذا التاريخ الأسود، والوحشية المقيتة، قد استطاع أن يعبر لغرب القناة ببعض الجنود والدبابات منتهزا وقف إطلاق النار، ليكسب وقتا، وليحصل على ورقة يلعب بها أثناء مناقشة القضية الملتهبة فى الشرق الأوسط..

قال سالم محمود عند سماعه ترجمة الحديث من أحمد عبد الفتاح : «ليكن .. فهناك حقائق لا يمكن نكرانها .. العبور تلك المعجزة الكبرى .. تحطيم خط بارليف .. ثبوت كذبة نظرية الأمن الإسرائيلى .. التحول العالمى لصالح العدالة .. التجمع العربى على قلب رجل واحد .. كل هذه معجزات ..» .

وهب أحمد واقفا، وقال : «احملونى على أعناقكم .. أريد أن أنظر من النافذة .. ثم أؤذن للصلاة ..» .

وجلجل صوته فى جنبات الليل ..

وخشعت القلوب والآكام والكائنات عندما ترددت فى الآفاق «الله أكبر .. الله أكبر ..» .



١٨

حين صمتت المدافع، وتوقف الصدام الدموى الرهيب الذى لم تر سيناء مثيلا له من قبل، وعاد عم عبد الفتاح إلى بيته، وجد زوجه فى انتظاره، كانت تتوكأ على عصاها، وسددت إليه نظرات ضارعة حزينة وقالت بنبرات خاشعة واجفة : « أين ولدى ؟ » .

– « الحرب لم تنته بعد يا امرأة ..» .

– « سألتك عن ولدى » .

– « ما زال هناك يؤدى واجبه ..» .

– « أريد أن أراه ..» .

– « ليس هذا فى يدنا ..» .

– « خذونى إليه ..» .

– « لم يعد ابنك » .

دقت على صدرها فى رعب وقالت : « ماذا تعنى ؟ هل أصابه مكروه » .

– « أقول إن أمنا الكبرى هى بلادنا .. ونحن وديعة عند الله .. وسبحانه، لا تضيع عنده الودائع ..» .

قالت فى شىء من الضيق : « أنت دائما تذهب بعيدا، وتغيب طويلا، ثم تعود .. لكن سلامة غاب مرةواحدة ولم يعد .. لم يستمتع بالحياة كما استمتعنا ..» .

ضحك عم عبد الفتاح وقال : «سامحك الله يا امرأة ، ألا تسرك عودتى ؟ أنا الأصل يا أم أحمد وغدا يعود ولدنا ..» .

طوقها بذراعيه ، وقبل وجنتيها المبللتين بالدموع ، وضمها إليه فى حنان ، إن كبر سنها وما حاق بها من مرض لم يذهبا اللهفة التى كان يقابلها بها دائما ، إن زوجه الطيبة المكافحة لم تزل جميلة مخلصة جذابة .. لم تغيرها السنون والنكبات ، وكيف وهى التى صمدت فى العواصف الهوجاء ، وتحدت سلطان الطغاة والغادرين ، وأحاطت أولادها بسياج من العطف والرعاية ، ثم تعبت من أجل لقمة العيش لهم أيام أن كان أبوهم يقاسى ما يقاسى وراء الأسوار .

وغمغمت قائلة : «كيف تنام ملء جفنيك فى زنزانتك وأنا أجرى هنا وهناك .. وكنت تضحك فوق «برشك» ، وأنا أكابد الهموم .. أنا التى حملت آلامكم كلها ..» .

ربت على صدرها ورأسها : «أنت لا تقلين بطولة عن أولئك الذين يستشهدون على الأرض الطيبة ..» .

سعلت ثم قالت : «أنا استشهدت أكثر من خمس مرات ..» .

وابتلعت ريقها وقالت فى لهفة : «لكن أحمد إذا لم يعد فستكون النهاية بالنسبة لى ..» .

أقبلت «جليلة» مهرولة ، كانت دموعها تغرق خديها ، والثورة تنبثق من نظراتها وحركاتها وملامحها ..

- «مستحيل أن أراه ثانية .. مستحيل ..» .

ربت على رأسها وقال : «ماذا جرى ؟» .

قالت وهى تلهث : «فتحى يريد رؤيتى ..» .

- «وماذا فى ذلك ؟» .

- «لقد حكموا عليه بالإعدام» .

انقبض عم عبد الفتاح ، لم يستطع أن ينطق سوى «لا حول ولا قوة إلا بالله» . وساد الجميع صمت مطبق ، كان الموقف مشحونا بالمشاعر المتضاربة المختلطة .. إن جليلة لا تريد أن تراه ، ولا تريد أن تتذكر الماضى ، إن جسدها يقشعر لمجرد ذكر اسم فتحى ، وأخرجها عم عبد الفتاح من صمتها العاصف قائلا : «لقد مات الخوف .. مات الخوف بالعبور الكبير .. والخيانة أيضا يجب أن تموت .. إننى آسى لأحزان البشر ، وآسف لضعفهم وخطاياهم .. ولكن القصاص حياة ، والعقاب ضرورة لحياة المجمع ..» .

كان يوما رهيبا ذلك اليوم الذى ذهبت فيه جليلة إلى هناك .. قابلها فتحى كهيكل عظمى مغطى بالجلد .. تترجرج عيناه فى رعب وحيرة .. ونتوءان بارزان فى وجهه يسجلان قصة ضياع أبدية ..

- «لقد حانت لحظة الوداع ..» .

لم تنطق جليلة بكلمة ..

- «أنا سعيد لأننا لم نتزوج .. لأن اسمى لم يرتبط باسمك ..

آه .. لقد اعترفت لهم بكل شيء من أجلك أنت .. كان جدى سامحه الله ممن غدروا بالزعيم عرابى .. باع نفسه للخديوى .. لهذا غيرت اسم عائلتى .. الخيانة لا تورث ، لكنها مجرد صدفة .. لم أعرف مدلول الخيانة إلا عندما سقطت .. لماذا لا تتكلمين .. حسنا .. لم يبق أمامى إلا القليل .. أريد أن أتكلم كثيرا .. وأكره النوم .. إن ورائى نوما طويلا حتى يوم القيامة ..» .

كان يلهث ، ويضحك ويبكى ، ويجلس وينهض ، ويهذى ، لم يكن يعرف ماذا يريد أن يقول فى النهاية ..

– «لقد انتصرنا ، أليس كذلك يا جليلة؟.. يا للعار الذى لا يمحى !! الناس يموتون حبا فى الوطن وآخرون يلقون حتفهم خيانة للوطن ..» .

قالت جليلة أخيرا : «دع عنك هذه الأفكار الآن» .

قال : «أخاف لقاء الله ..» .

– «إنه يغفر الذنوب» .

– «والندم يأكلنى .. يعذبنى .. إنه كالوحش الضارى .. تمنيت أن يضعوا حدا لحياتى الآن .. أنا وليد بيئة قذرة ..» .

ودخل ضابط السجن وقال : «سوف تجد فرصة كبرى لتكفر عن خطاياك» .

تطلع إليه فتحى فى دهشة وقال وقد تدلت شفتاه : «كيف؟ ..» .

– «الحاكم العسكرى العام خفف عنك حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ..» .

اتسعت ابتسامته البلهاء .. صاح : « غير معقول ..» .

– «كان ذلك بمناسبة النصر فى معركة رمضان الخالدة ..» .

وقف كغصن جف وذوى ، ورفع جبينه الشاحب ورأسه الحليقة إلى السماء ونادى «لك الحمد ..» .

وتمتم الضابط : « انتهت الزيارة ..» .

اختطف يد جليلة وأخذ يقبلها ويغسلها بالدموع وهى لا تدرى ماذا تفعل ، وهدأت مشاعره الثائرة ..

قال : « أترى سارك ثانية ! » .

تركت السؤال معلقا ، وأعطته ظهرها ومضت ، وعندما بلغت باب السجن تنهدت فى ارتياح ، وحمدت الله على أن تخلصت من ذلك العبء الثقيل ..

عادت جليلة إلى بيتها حيث علمت أن أحمد عبد الفتاح لم يعد إلى فرقته ،وأنه اعتبر فى عداد المفقودين وحدثها أخوها عبد السلام عن المعركة التى اشترك فيها أحمد نقلا عن الرقيب عرفان ، وقد كان للخبر وقع الصاعقة عليها .. تذكرت جليلة أيام الحرب الملتهبة ، والرجال الذين كانوا يسقطون صباح مساء ، والمعركة الهائلة بين المقاومة الشعبية وبين الإسرائيليين المتسللين من ثغرة الدفرسوار ، ثم تذكرت كيف نجا

الخائن من الموت .. وقالت من بين دموعها المنهمرة : «كنت أظن أن أحمد أقوى من الموت ..» .

ليلتها لم تستطع النوم ، فشلت كل العقاقير الطبية المهدئة والمنومة فى التغلب على أرقها وأحزانها ، صورة أحمد عبد الفتاح بوجهه المشرق الذى يفيض بالمحبة والإيمان والثقة ، ورأسه الحليق ، وكلماته الصادقة .. ويقينه العجيب الذى يملأ النفس بالرضا والاطمئنان ..

وعادت تقول : «كنت أظنه أقوى من الموت» .

لكن لله فى خلقه شئون ، إن القدر يمضى إلى حيث يشاء الله ، كنت أنتظر عودته ، وأردت أن أقول له أشياء كثيرة .. وأناقش معه قضايا ساخنة .. لكنه لم يعد .. ضاع فى الزحام الكبير الذى يغطى الصحارى والحقول والأرض والسماء ، والشطآن والماء .. ما أكثر الذاهبين وما أكثر العائدين !

حينما التقت بعم عبد الفتاح قال لها : «كنت أعلم أن ولدى مفقود .. القضية بالنسبة لى منتهية منذ أن ألقيت بحملى على الله .. بعض الناس يتوسلون بالعبيد ، وأنا أقصده هو مباشرة .. ربى الله .. أريد أن أقول لك .. لقد عانقت الموت مائة مرة .. وها أنا ذا بين يديك .. لقد مات كثيرون وهم على فراش الاطمئنان والدعة .. وعاش آخرون وهم يتواثبون على شفا الهاوية ..» .

كانت أم أحمد قلقة ، لقد أخفوا عنها كل شىء ، واخترعوا لها الأخبار المطمئنة ، وقلوبهم تخفق إشفاقا ولوعة ..

- « عندما يعود أحمد فسوف ألقنه درسا لن ينساه ، هو يعلم أننى لا أحتمل فراقه طويلا .. فكيف يمضى هذا الوقت العصيب دون رسالة أو زيارة ..» .

ودق الباب دقات عنيفة :

انزعج الحاضرون :

صرخت الأم : « ولدى » .

وقال عم عبد الفتاح فى هدوء يتنافى مع وجهه الشاحب : «خير ..» .

وهرولت جليلة صوب الباب لتفتحه : «ماذا جرى يا أخى .. هل جننت يا عبد السلام ..» .

قال وهو يرقص ويتواثب فى سعادة : «لقد وجدوه ..» .

- « أحمد ..» .

صاحت الأم مرة أخرى : « ولدى ..» .

وأمسكت جليلة بيد أخيها وضربات قلبها تكاد تهد ضلوعها : « افصح عن قصدك ..» .

قال عبد السلام وهو يجلس لاهثا : «لقد وجدوا اسم أحمد فى قائمة الأسرى التى سلمها الصليب الأحمر للقيادة المصرية .. رآها الرقيب عرفان بنفسه ..» .

قالت الأم : « أنا لا أفهم شيئا ..» .

وقال عم عبد الفتاح : « الحمد لله ..» .

أما جليلة فقد احتضنت أخاها وأخذت تمطر وجهه بالقبلات والدموع .

وتمتم عبد السلام : « هذه القبلات ليست لى ..» .

وفهمت الأم ماذا جرى ، لقد أدركت على التو أن ولدها كان مفقودا ، ثم اتضح أخيرا أنه ضمن الأسرى لدى العدو ، وسرعان ما جاشت عواطفها وأخذت تبكى بحرقة : «لماذا تبكين يا زوجتى وقد كتب الله له السلامة ؟» .

– « أنا لا أثق فيهم ، قد يغدرون به ..» .

– «لدينا أسرى منهم ، وهم حريصون على تبادلهم معنا بعد اتفاقية وقف إطلاق النار وفصل القوات ..» .

قالت وهى تدق على المنضدة بيدها : «لن يطمئن بالى إلا إذا لمسته بيدى هذه ..» .



١٩

ودخل القاهرة مع مشرق الشمس ..

وابتسم أحمد .. الشوارع ملأى بالأطفال الذاهبين إلى المدارس .. والناس يتكدسون فوق العربات والترام والدراجات .. وباعة الصحف ينادون فى سعادة .. الفرحة على الوجوه وعلى الأبواب والجدران والملصقات ..

تيار الحياة يتدفق فى الشوارع منذ مئات السنين .. هنا القوة والخلود والجهاد .. لكم أحبك يا دارى .. يا أهلى .. يا وطنى .. يا مآذنى وقبابى .. حلمت بك فى ظلام الأسر ، وفى ساعات الموت والصراع الرهيب .. وهتفت باسم الله كى يرعاك .. لا شىء يستطيع أن يخمد ابتسامة الفرح فى عيون الأطفال يا أمتى العظيمة .. يا من حملت رسالة الإسلام والسلام والحرية إلى كل الدنيا .. يا مدرسة التاريخ ومعلمة الشعوب .. قصيدة شعر فريدة تضطرم بين جوانحى لكنى لا أستطيع أن أصوغها أبياتا .. لكن موسيقاها فى قلبى وروحى .. وإيقاعها ينسجم مع خطاى وكلماتى ونظراتى يا معشوقة التاريخ .. يا أرض النبوات ..

قبل أن يدق باب البيت ، سمع صوت أمه يهتف : « ولدى ..» .

إنها معجزة أخرى ، ودق الباب ، ودخل ، وثبت من فراشها وهى تقول : « ألم أقل لكم أنه ولدى ..» .

وذاب الكل فى واحد .. الأب والأم وجميع من بالبيت .. وخرج عم عبد الفتاح فى غمرة الفرح ثم عاد ومعه جليلة .. نظرت إليه .. هو بعينه .. الوجه الباسم المؤمن .. الرأس الحليق .. العيون العميقة .. طأطأت رأسها ، ووقفت فى مكان قريب منه .. قالت أم أحمد : « سلمى على عريسك يا بنت ..» .

نسيت جليلة ليسانس الآداب ، والآنسة المهذبة والأخصائية الاجتماعية ، وما تعلمته من اتيكيت .. وكانت كلمة « بنت » فى أذنها كأحلى نغم ، وأعذب أغنية ..

صافحته فى خجل وجلست يغرقها طوفان من السعادة .. كان أحمد يتحدث عن ذكريات الحرب والأسر ، وهى تتلقف كل كلمة ينطق بها .. كانت تغار من السامعين ، وتتمنى أن تكون هذه الكلمات لها وحدها .. ومن آن لآخر تجذب مقعدها نحوه .. وعندما أوشكت على الاقتراب منه همس قائلا : «متى يا جليلة ؟» .

- « اسأل أمى ..» .

- «لماذا تماطلين ؟» .

ابتسمت وقالت : «لقد انتهت المعركة ..» .

- « المعركة لم تنته بعد ..» .

قالت فى غضب مفتعل : « إذن لا زواج إلا بعد المعركة ..» .

– «منذ متى توقفت المعارك؟ لابد أن نتزوج، وننجب أطفالا أصحاء ليواصلوا المعركة وينتصروا ..» .

قالت وهى تخفض رأسها فى حياء : «موافقة ..» .

صاح بطريقة أفزعتها : «بشرط ..» .

– «ما هو ؟» .

قال أحمد : «الزى الشرعى ..» .

– «هذه مسألة شكلية ..» .

– «الشكل والمضمون يا جليلة كيان واحد ..» .

طأطأت رأسها ثانية وقالت : «موافقة ..» .

أخرج المصحف من جيبه ثم وضعه فوق أيديهما وهو يقول : «هذا عهد الله ..» .

فى اليوم التالى نشرت الصحف نبأ صغيرا فى صفحة داخلية، يقول إن السجين «فتحى» المحكوم عليه فى قضية الجاسوسية قد انتحر، وذلك بأن ألقى بنفسه من الدور الرابع بالسجن بعد أن غافل حرسه، وقد دفنت جثته بمقابر الصدقة بعد أن رفض ذووه التقدم لاستلامها ..

(تمت)